د. حسن البنداري

العائد بالحب

(رواية)

الطبعة الثانية

٢٠٠٨



تسويق ونشر

مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى

الكتاب: العائد بالحب

المؤلف: د. حسن البندارى

الطبعة الثانية: القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٤٩٠٩

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-6215-18-1

البندارى، حسن.
العائد بالحب: رواية/ حسن البندارى. ط٢.
– القاهرة: مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى، ٢٠٠٧.
١٨٥ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ١-١٨-٦٢١٥-٩٧٧
١- القصص العربية.
أ- العنوان ٨١٣

صدرت الطبعة الأولى ٢٠٠٦

العائد بالحب

رواية

المدير العام خالد عبد الصمد خفاجي
مدير النشر عـــادل متـــولي

الجمع والصف الإلكتروني
القسم الفني
إشراف وتنفيذ إيمان خفاجي
تصميم الغلاف: للفنان عطية الزهيري
طباعة: مطبعة العمرانية للأوفست – الجيزة

تسويق ونشر
مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافي
الإدارة والمكتبة: ٤٤٩ ش السودان – المهندسين
الدور الأول- شقة ٤
أمام مجمع محاكم شمال الجيزة.
التسويق: ٠١٢٣٧٠٥٠٢٤ - ٠١٠١٨٨٩٣٦٣
Email: aagyal@yahoo.com
aagyal@hotmail.com

(١)

"نادي الياسمين" واسع متعدد المشاهد، يُطل على نيل المعادي. مياهه نظيفة صافية، تتلألأ بإضاءات أعمدة السور الحجري القصير، والأنوار المعلقة في أغصان الأشجار البديعة التنسيق. بالقاعة الزجاجية الفسيحة المكيفة الهواء نظّم النادي ندوةً فكرية دعت إليها رئيسته الدكتورة نسمة الهواري نخبةً من رجال أعمال مرموقين، ونساء لهنّ صلة بالتخطيط الاقتصادي، كما دعت عددًا من أساتذة الجامعات وسفراء الدول العربية والأجنبية..

وحرصت على الحضور الإعلامي الصحفي والتلفزيوني؛ لتغطية وقائع الندوة. فانتشر في أرجاء النادي صحفيون وصحفيات ومذيعون ومذيعات، يمثلون مختلف الصحف والمجلات والقنوات التلفزيونية الأرضية والقنوات الفضائية. توسطت بطاقة الدعوة الفاخرة الأنيقة ثلاثةُ سطور مكتوبة

باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية. يعلو السطور الثلاثة كلمتان بخط بارز "دعوة خاصة": يسر نادي الياسمين دعوتكم لحضور محاضرة يلقيها الخبير الاقتصادي المصري العالمي الدكتور مختار الصالح، في الساعة الثامنة مساء يوم ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٤. رئيس النادي الدكتورة نسمة الهواري.

أحسستُ بالرضا وأنا أقرأ اسمي: "مختار الصالح"؛ هاأنا أعود أخيرًا إلى أرض الوطن بعد هجرة امتدت ثلاثين عامًا، قضيتها في كندا التي منحتني فرصة عمل بفرع شركة بترول كبرى في مدينة (كالجاري) الحدودية المتاخمة للصحراء. صرتُ بعد مرور عشرة أعوام مديرًا لهذا الفرع، وتقديرًا لكفاءتي في إدارته قررت الشركة نقلي إلى مقرها الرئيسي بالعاصمة (أوتاوا). فأصبحت مرجعًا أساسيًا لعدد من شركات البترول في كندا وخارجها. أسست شركة اخترت لها اسمًا فرعونيًا "خوفو للاستشارات البترولية والاقتصادية"، فأخذت تُدرّ عليّ أموالاً طائلة طوال عشرين عامًا. وحظيت بثقة الجميع لاسيما أني حصلت على درجة الدكتوراه في "الاقتصاد

الدولي".. هاأنا ذا أعود إلى أرض الوطن في الرابعة والخمسين، مزودًا بالأموال والآمال، وبدراسات عن مشروعات متنوعة أرجو أن تتحقق..

وصلت إلى مقر النادي النيلي بصحبة شقيقتي الدكتورة "بهيرة الصالح" أستاذة القانون الدولي، التي راعت أن يكون مسكني قريبًا من مسكنها بحي "رويال سيتي" المتاخم لطريق الإسكندرية الصحراوي. استقبلتنا رئيسة النادي بمكتبها الوثير الفاخر.. حيّتني بحرارة كما حيّاني عدد من أعضاء مجلس الإدارة. وقبل موعد الندوة بدقائق اتجهنا إلى القاعة الزجاجية التي امتلأت تقريبًا بالمدعوين والمدعوات..

قدمتني الدكتورة نسمة بوصفي "مواطنًا صالحًا محبًا لتراب وطنه، وفيًا لأهله، شغوفًا بسكانه، مكترثًا بآمالهم وأحلامهم، آثر أن يستثمر أمواله في مصر لإقرار المزيد من التقدم والاستقرار الاقتصادي ... و...".

قبل أن تدعوني إلى الحديث وُزّعتْ على جمهور الحاضرين ورقة باللغات الثلاث: العربية والإنجليزية والفرنسية،

حددتُ فيها الموضوع وعناصره الأساسية... ورأيتهم ينظرون في الأوراق بعناية عدا امرأة أو فتاة جميلة... لا أدري، متوسطة العمر، بين أصابعها ورقتها، ولكن لا تنظر فيها..

في بداية حديثي حددت معالم أفكاري الطموحة بتركيز ووضوح، وحصرتها في عدة محاور، واقترحت مشاريع مختلفة سوف أشارك في تمويلها مع غيري من المستثمرين الكنديين. وكنت ألاحظ على وجوه كثيرة سيماء الارتياح؛ فواصلت بحماسة عرض أفكاري التي أختزنها في صدري منذ سنوات طويلة..

أثناء تعقيب الدكتورة نسمة – وهي أستاذة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية – على محور "التمويل"، اجتذب بصري وجه المرأة أو الفتاة التي لاحظت أنها لا تنظر في ورقتها. تجلس هادئة ساكنة بالصف الأول. كانت تتابعني بابتسامة صافية تتخللها المودة.. وجدتني بقوة عارمة أدقق النظر في وجهها

الأبيض المستدير. تلاقت عيوننا غير مرة ... عيناها واسعتان عميقتان بلون العسل الفاتح، تعكسان معاني السموّ، والبهاء، والاحتواء. دققت أكثر وأنا أفضي بمعلومات عن مشاريع مستقبلية قابلة للتنفيذ. رأيتها أجمل مَن رأت عيناي. لم ألتقِ بمثل هذا الجمال في سنواتي المنقضية. ولكني شعرت في نفس الوقت أن هذا الوجه مألوف لي..

حين أخذ أحد رجال الأعمال يعقب على محور "المشاركة الأجنبية" شرد ذهني للحظات تساءلت خلالها عن المرأة: هل سبق لي أن رأيتها؟ هل جمعنا من قبل مكان؟ وأين؟ ومتى؟ وفي أية مناسبة؟.. وجدتني أتحسر وأقول في نفسي: كيف لم أهتدِ من قبل إلى هذا الجمال السامي؟!..

تواصلت تساؤلاتي رغم متابعاتي لآراء المعلقين الذين أبدوا ملاحظات حرصْتُ على تدوينها بعناية. ورأيت ابتسامتها تتسع، ويزداد إقبال عينيها العسليتين عندما جعلت أعقب على

الآراء المطروحة؛ فاشتد حماسي وتضاعف تصميمي على تنفيذ مهمتي، وقوي يقيني بضرورة الشروع في إقرار هذه المهمة المقدسة..

قبل مغادرتي المنصةَ وجهت الشكر إلى جميع من وافقوني ومن عارضوني، بينما كانت نظرات المرأة أو الفتاة تساندني، وتحثني في نفس الوقت على التقدم نحوها والاقتراب منها .. خطوة .. وخطوات..

(٢)

تنقلت بين الموائد أثناء احتساء الشاي وتناول الفطائر الصغيرة؛ بغرض تحية المدعوين لقاءَ تلبية الدعوة. حادثت كل من أراد محادثتي... وتكلمت مع رجال أعمال وسفراء، وتبادلت مع سيدات التحيات والتمنيات الطيبة. وسجلت أحاديث مع مندوبي صحف ومجلات وقنوات تلفزيونية محلية وعالمية، تناولت فيها مشروعاتي الحيوية الملحّة، وكانت إلى

جواري الدكتورة نسمة الهواري وشقيقتي الدكتورة بهيرة.. تتوليان مهمة تعريفي بضيوف الندوة..

أثناء لقائي بهذا الضيف أو ذاك كنت أبحث عن المرأة أو الفتاة الجميلة المستديرة الوجه الصافية العينين.. بدا لي أنها رحلت. تضايقتُ وأسفت.. تذكرت أنني عزفت عن الزواج بعد هجرتي الطويلة؛ لاعتقادي أن الزواج لن يكون في صالحي؛ فهو يتعارض مع طموحي العلمي والوظيفي والمالي. حاولت غير مرة، ولكن محاولاتي لم تكن جادة. فأيقنت أن القدر يحتفظ لي بأنثى سوف تشاركني الحياة في الوقت المقدر والمحدد. فهل حان الوقت لتكون هذه الجميلة زوجة ورفيقة سنوات العمر المقبلة؟ لكن أين هي؟ أين هي حتى أقول لها: هداني القدر إليك أخيرًا، ولن أفرط فيك؟! وتساءلت متحسرًا: أين هي؟ لا أراها. الظاهر أنها غادرت. ومرة أخرى شعرت بالأسف..

فجأة ظهرت المرأة أو الفتاة. هرعتُ إليها.. وأسرعَتْ نحوي. مددتُ يدي بلهفة فمدتْ يدها بسرعة أيضًا. تصافحنا واستبقى كل منا يد الآخر لبعض الوقت. ومضى كل منا يدقق في وجه الآخر. وقلت في نفسي: هاهو الكنز الذي كان القدر يخبئه لي. وقال صوت في أعماقي: اقبض على هذه الفرصة الكنز، ولا تدعها تفلت من قبضتك. أذعنت للصوت؛ فقلت لها:

– أين كنت؟

فأجابتني بسرعة:

– وأنت.. أين كنت؟

– كيف لم أركِ من قبل؟

فقالت ضاحكة:

– رأيتني، لكنك كنت تستعد للسفر والهجرة.

فصمتُّ مأخوذًا:

- أين؟!
- في أماكن كثيرة.

فقلت مستغربًا:

- هل التقينا من قبل.. هل جمعنا كلام؟
- كنتَ مشغولاً بحلم السفر والهجرة.
- ليتني عرفتكِ قبل السفر!

قالت باقتضاب:

- نصيب..

ثم أضافت بعد برهة:

- سوف تراني مرة أخرى. واعذرني.. لابد من الانصراف الآن.

أبديت لها رغبتي في أن نجلس ونتحدث. فأنا لم أعرف اسمك حتى الآن. وكيف سأراك؟ وأين؟ وفي أي حي أو ضاحية أو شارع تقطنين؟

مدت يدها إليّ لتودعني. فاستبقيتُها وأنا أشعر بمشاعر متصادمة، وقلت لها:

- لا يمكنك الانصراف قبل أن نتفق.

فقالت واهنة:

- لا أستطيع أن أعدك. ولكن ثق بأنك سوف تراني.

قطع حديثنا صوت شقيقتي بهيرة التي حيّتها بحرارة دلّت على وثاقة الصلة بينهما.. ثم وجهتْ كلامها إليّ قائلة:

- السفير المكسيكي يسأل عنك..

حيّتنا المرأة / الفتاة بهزة من كفها الأيمن، واستدارت. مضت نحو باب الخروج.. بينما رافقت شقيقتي قاصدًا مائدة السفير المكسيكي. لكنني سرعان ما تعجبتُ؛ فقبل أن نبلغ المائدة أمسكتْ بهيرة بيدي وانحرفتْ بي بعيدًا عنها حتى نهاية القاعة. توقفتْ في زاوية بعيدة عن الموائد فوقفتُ.. ثم قالت بحدة:

- معجب بها؟!

فأجبت سريعًا:

- جدًا..

فقالت محذرة:

- ابتعد عنها. أنصحك بالبعد عنها.

فتساءلت بفضول:

- لماذا؟! لماذا؟!

- لأنها تخص رجلاً آخر.

فقلت باضطراب:

- متزوجة؟

فبادرت قائلة:

- زوجها خطير.. ابتعد.

قلت بصوت واهن:

- اسمها؟ اسمه؟

- لا يهم. ابتعد وكفى.

قلت بحسرة كأنني أحادث نفسي:

- ظننتها خالية!

ثم أضفت بصوت مسموع:

- قلت لنفسي هاهي من كنتُ أبحث عنها طوال السنين الماضية.

ردت بهيرة بصوت مفعم بالأسى:

- لا فائدة.. ليست لك.. إنها ملك لآخر.

تطلعت إلى باب الخروج، فرأيت المرأة تقف بالقرب منه مع رئيسة النادي. سررت لأنني وجدتها لم تغادر المكان بعدُ. كانتا مستغرقتين في الحديث. استأذنت بهيرة وأسرعت إلى المكان بينما كانت قد استدارت متجهة إلى الباب..

وجدتني أشق طريقي بين الموائد بخفة ولهفة غير مبالٍ بنظرات أحد هنا أو هناك.. خرجت من الباب.. رأيتها تمضي نحو سيارة طويلة سوداء. قبل أن أصل إليها سارع السائق وفتح لها الباب. دخلتْ وجلستْ في المقعد الخلفي. تسارعتْ خطواتي فاقتربتُ من السيارة. أنزلتْ نصف الزجاج بشفتين باسمتين وملامح راضية.. قلت:

- هل سأراك مرة أخرى؟

هزت رأسها بالإيجاب وهمست:

- نعم سنلتقي مرة أخرى.

أمرتِ السائق بالتحرك. فانسابت السيارة ببطء لتنعطف إلى الطريق المقابل مغادِرةً المعادي..

تابعتُ مؤخرة السيارة وهي تسرع وبداخلي مشاعر العجب والاستغراب، وفيض أسئلة نشطة: أي حظ؟! أي مفاجأة؟! أي خسارة؟! كيف لم أحصل على اسمها؟ كيف

تركتها تمضي هكذا دون اتفاق على موعد؟ وهل من حقي أن أفكر في لقاء آخر ما دامت تخص غيري؟ كيف تراخت قبضتي؛ فتركتُ هذه الفرصة الكنز؟ كيف فرطتُ في كنزي الذي كم فتشت عنه طوال سنوات الغربة؟ إنها كنزي الذي ادخره لي القدر. إن القدر حرمني من الاقتران بأي أنثى حتى الآن..

وتساءلت بحسرة: لماذا جعل في طريقي أنثى متزوجة؟، كيف سأتعامل مع هذا الواقع الغريب المحفوف بالمخاطر؟، وهل بإمكاني أن أواصل التقدم والاقتراب من زوجة هذا الرجل الخطير؟ إنني في حيرة هائلة من أمري. بل في محنة شديدة أشعر أنها لن تنتهي بسلام؛ فواضح من تصرفي الآن أن قلبي قد خفق بحبٍ لا يجعلني أفرّط في هذه الفرصة الكنز.. حقًا إنني في حيرة، بل في محنة أشعر بشدة أنها ستدفعني إلى طريق غامض محفوف بالمخاطر..

عدتُ إلى القاعة بعد أن غابت السيارة عن بصري.. اتجهت إلى المائدة التي تحلّق حولها الدكتورة نسمة، وزوجها الدكتور نظمي الفاتح أستاذ القانون الدولي، وشقيقتي بهيرة. وقبل أن أصل إلى المائدة اقترب مني شاب في الثلاثين تقريبًا. قدّم نفسه إلي قائلاً:

- حازم السواحلي. مدير مكتب راغب الدهشوري. كلفني أن أعتذر إليك لارتباطه بموعد بالإسكندرية. وقد أبلغت الدكتورة نسمة الاعتذار نفسه.

شكرته ورحبت به. فمضى إلى مائدة يجلس حولها أشخاص لا أعرفهم، ثم انضممت إلى مائدتنا التي انطلقت منها عيون يمازجها قلق وفضول. كما رأيت في الموائد القريبة نظرات أدركت أن أصحابها يراقبونني. راقبوا - دون شك - حديثي إلى السيدة، وخروجي من القاعة خلفها، وعودتي إليها حيث جلست صامتًا أنعم بمشاعري رغم ما شابها من تصادم أحسّ أنه لن يدوم. لكن صمتي لم يستمر طويلاً؛ فقد حضر

إلى المائدة حازم السواحلي، ودعاني إلى مائدة تحلّق حولها ثلاثة رجال أعمال. وعدته بالذهاب إلى مائدتهم بعد قليل. لاحظت في عيون بهيرة ونسمة ونظمي معنى تحذيريًا جعلني أتساءل عن حقيقة هؤلاء الثلاثة، فقالت الدكتورة نسمة:

- الواقع أنهم أصدقاء راغب الدهشوري.

قلت:

- لا أعرفهم.. لم أتعرف على أحد منهم بعد.

قال الدكتور نظمي الفاتح:

- هم: زاهد العابد، وسامح بطران، وأكرم الدواخلي.

سكت قليلاً، ثم واصل:

- زاهد العابد مثار جدل في الوسط التجاري والمالي.

وقالت نسمة:

- سامح بطران وطني مخلص، لكن له خصوصياته غير المعلنة.

وعقبت بهيرة:

- أكرم الدواخلي لا تستطيع أن تعرف أفكاره بسهولة.

وقال نظمي:

- رأيي أن تقبل الدعوة. وكن حريصًا على أن تسمع منهم أكثر مما تتكلم.

عملت بالنصيحة.وغادرت مكاني إلى مائدتهم؛ فنهضوا مرحبين ومهنئين على المحاضرة. واندمجنا في أحاديث شتى تتعلق بالاقتصاد المحلي والعالمي، وبمشروعات مستقبلية يمكن أن تتولاها شركات جديدة. وقلت:

- المهم ألاّ نلقى العبء كله على الدولة.

فقال زاهد العابد:

- الدولة تعجز في أحيان كثيرة عن حل جميع المشكلات.

وقال سامح بطران:

- احتكار السلع مدعاة للفساد والإفساد.

عقب أكرم الدواخلي:

- من الممكن أن نساهم بإنشاء شركات وطنية جديدة.

وقلت بحماس:

- أنا على استعداد للمشاركة في إنجاز مشروعات جديدة مدروسة بعناية.

وتواعدت مع زاهد العابد على اللقاء في صباح الغد لاستكمال الحوار.. وتواصلت لقاءاتي مع عدد من السفراء الأجانب والعرب ورجال أعمال آخرين، ومع سيدتين تنتميان إلى "جمعية الاتحاد النسائي الاقتصادي". ودونتُ ملاحظات وأنا أستمع إلى الجميع.. وغادرت المكان وبهيرة بعد أن شكرت رئيسة النادي وأعضاء مجلس إداراته.. استقللنا السيارة حوالي الواحدة صباحًا لنمضي إلى "رويال سيتي"..

(٣)

لزمت الصمت أثناء قطع السيارة الطريقَ المؤدي إلى المدينة الجديدة.. "رويال سيتي". لم أنبس بكلمة ولم أسمع جيدًا كلمات شقيقتي بهيرة. غرقت في تيار أفكار متزاحمة. فكرت في المرأة التي لم أعرف اسمها بعد، وفكرت في زوجها الذي حذرتني منه شقيقتي، وفكرت في "كنز" كم بحثت عنه ونشدته طوال السنين الماضية، وتساءلت: كيف نسيت نفسي في الغربة فلم يخطر بذهني أن أرتبط بمن ترافقني في رحلتي؟ كيف تركت الأعوام تمر دون أن أقتنص إحدى الفرص التي سنحت لي في أحيان كثيرة؟، وفكرت في أن علاقاتي النسائية – في المهجر – كانت عابرة فلم تصل إلى درجة العمق.

رأيتني في تفكيري والسيارة تتهادى بنا – أعمل بدأب ومشقة وجهد مضن لأغذي طموحي وأشيّد لنفسي حياة مستقرة.. فهل يتوافر لمثلي وقت لاتخاذ قرار زواج من كندية

أو عربية أو مصرية أو من أية جنسية أخرى؟!، ورأيتني كثير الأسفار في مهمات عمل إلى أمريكا، وكوبا، والأرجنتين، والمكسيك، وفرنسا، وروسيا، والصين، والسعودية، والكويت.. ورأيتني في أوقات فراغي المحدودة، وأنا أشاهد بمسرح العاصمة (أوتاوا) مسرحيات تعرضها الفرق المسرحية الكندية، أو الفرق المسرحية الزائرة..

كم خاطبني منذ أعوام قليلة صوت وقور ملحّ بداخلي: أما آن لك أن تبني بفتاة تشاركك رحلة الحياة؟. هاأنت قد تجاوزت الخمسين وليس إلى جوارك أحد. لا زوجة ولا أبناء. كيف تحتمل هذه الحياة دون أسرة لم تشأ أن تصنعها حتى الآن كما صنع الآخرون في بلاد الغربة وغيرها؟!، اكتفيت بجميلات أحطن بك في العمل وتسابقن في إرضائك بصورة أو بأخرى، فما الفائدة؟!. هدر الصوت الوقور مكررًا السؤال بقسوة وعنف: قل لي ما الفائدة؟! وجدتني أقاطع السؤال هروبًا من الصوت الملحّ بهمس سمعته بهيرة:

- مضت دون أن أعرف اسمها..!

فقالت:

- فريدة البدري. اسمها فريدة البدري. زميلة الدراسة وجارتنا بعابدين. ألا تذكرها؟!

همستُ بوهن:

- مضت ثلاثون عامًا.. شعرت طول الوقت أنني رأيتها من قبل.

- زوجها راغب الدهشوري.

رددت الاسمين بانكسار:

- فريدة. راغب. فريدة. راغب.

وقاطعتني بهيرة سائلة ومذكرة:

- ألا يذكرك راغب الدهشوري بشيء.

فقلت بسرعة:

- يذكرني بأشياء وأشياء..

استغرقني التفكير مرة أخرى، فبرقَتْ بذهني صور لأشخاص وأماكن وكلمات حسبتني نسيتها.. هاهي تعود واضحة. صورة فريدة البدري بنت العشرين زميلة بهيرة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. رأيتها مرتين بمنزلنا. كانت معرفة شقيقتي بها حديثة. في المرة الأولى تلاقت نظراتنا دون كلام. وفي الثانية جاءت للسلام والوداع ليلة الهجرة. أتذكر الآن كلمة واحدة "تذكّرنا". صدرت عن فريدة. أعترف أن الكلمة كانت أحيانًا تسطع بذهني. لكن كنت أعدها كلمة مجاملة لجارة معرفتي بها محدودة، وزميلة لشقيقتي بالجامعة. وها هو "الدهشوري" الشاب اليافع المغضوب عليه من أسرته لسوء سلوكه، والمزعج لسكان الحي لجرأته وجسارته. هاهو بعد هجرتي أسمع أنه لم يكمل تعليمه، ومارس أعمالاً مريبة حتى أثرى في وقت قصير مع تشجيع الدولة آنذاك على الانفتاح الاقتصادي، بينما كنت ما زلت أبحث عن عمل مستقر في

بلاد الغربة. وهاهو يعاودني بصورته الغريبة حين جاء إلى كندا ضمن وفد من رجال الأعمال، فاضطررت إلى استقباله والجلوس معه بعد أن باعد الزمن بيننا لمدة خمسة وعشرين عامًا. لم أشعر خلال لقائي به بأي ميل أو ارتياح. لم أكن أعلم عنه سوى أنه رجل أعمال يشارك في بناء مشروعات عملاقة. هاهو راغب الدهشوري قد تزوج من فريدة البدري التي لازمها سوء الحظ فترملت مرتين. وهاهي صورته وقد نجح في انتخابات مجلس الشعب. تنشرها الصحف القومية وصحف المعارضة. نسى أهالي عابدين راغب الماجن، ولم يذكروا سوى المبالغ الكبيرة التي أغدقها على أشخاص لهم وزنهم في الحي؛ فمارسوا الضغوط على البسطاء والسذّج. "راغب الدهشوري خير من يمثلكم، ويضمن لكم حقوقكم". صدقه الناخبون وآمنوا بوعوده.. انتخبوه..

بهتت بذهني الصور والمشاهد. وتلاشت الأصوات والكلمات حين قلت لبهيرة:

- كيف؟، ومتي تزوجها؟
- فريدة تعيسة.. راغب الدهشوري زوجها الثالث، مع الأسف الشديد.

أبديت أسفي، وأظهرت عجبي. واصلت بهيرة الكلام:

- لم تتركني فريدة لحظة منذ مصرع رشدي.

حدثت نفسي بأن بهيرة تزوجت من رشدي العامري بعد قصة حب. تزاملا في الكلية، وبعثتْهما الدولة إلى باريس للحصول على درجة دكتوراه الدولة. زاراني في (أوتاوا) مرة قبل حصولهما على الدكتوراه. خففت الزيارة من إحساسي بالأسف لوفاة والديّ عقب رحيلي بعامين. ثم زاراني بأبنائهما الثلاثة قبيل عودتهما إلى الوطن؛ ليتسلما عملهما في الكلية. هو في قسم الاقتصاد، وهي في قسم السياسة. تساءلت بحزن:

- ألم يظهر الجاني مرتكب الحادث؟

قالتْ بهيرة:

- لم يكن لرشدي أعداء.
- لماذا قتل إذن؟
- كل ما فعله أن شركته التي أسسها بعد عودتنا بخمس سنوات. كانت تزدهر عامًا بعد آخر. عده منافسوه خطرًا عليهم.
- هل شككت في أحد؟
- حامت شبهات حول الفاعل الأصلي.
- من؟
- راغب الدهشوري.
- لا أظن.. فالرجل ليس بحاجة إلى منافسة أحد.
- هكذا يظن الجميع.. قلبي لا يكذبني.
- والعمل؟
- دم رشدي لن يذهب هدرًا. يدعوني دائمًا إلى تقديم القاتل للعدالة.

(٤)

أوقف السائق السيارة أمام مسكن بهيرة القريب من مسكني. قالت هامسة قبل أن نغادر السيارة:

– اعلم أن فريدة تقطن في "رويال سيتي".

أشارت إلى قصر فوق ربوة تطل على فيلّتي، وتبعد عنها بحوالي مائتي متر تقريبًا.

– تسكن فريدة في هذا القصر؟!

أبديت استغرابي ودهشتي. فواصلت قائلة:

– خذ حذرك.. ربما تجمعكما الصدفة.خذ حذرك. ليس لنا غيرك.

سكتت لبرهة، وأضافت وهي تشير إلى القصر:

– يحرسه رجال أشداء وكلاب حراسة مدرّبة، وتحوطه أسلاك مكهربة، وتراقب الطريق الصاعد إليه كاميرات

منتشرة من الصعب رؤيتها.. وأجهزة إنذار تواجه المتسللين إلى القصر.

- ما أدراك بهذا كله؟!

- كم ذهبت إلى القصر لزيارة فريدة..

قلت مندهشاً:

- ولماذا كل هذه الاستحكامات؟!

- الخوف!

- ممن يخاف؟

- من أي أحد.

جعلت أردد بصوت هامس:

- نعم. فريدة تستحق المزيد من الحراسة والرعاية.. ولكني أراها تعيسة في سجن لا قصر.

قاطعتني بهيرة قائلة:

– أخاف عليك من تصرفٍ أو بطش يؤذيك.

– لا تخافي..

هبطت بهيرة من السيارة بعد أن فتح لها السائق الباب، ومضت إلى باب المسكن ودخلت.. عاد السائق إلى مكانه، وقاد السيارة مسافة قصيرة إلى مسكني أو فيلّتي التي تبعد عن فيلا بهيرة بحوالي مائتي متر، تواجه الفيلا القصرَ المضيء فوق الربوة، تحف جانبَي الطريق الصاعد إليه الأنوارُ الباهرة.

دخلتُ ورقيت في السلم إلى الطابق الثاني. قصدت غرفة مكتبي. أضأتها. فتحت بابها الداخلي المؤدي إلى الشرفة الواسعة. لم أفكر في إنارتها. بل رجعت إلى المكتب وأطفأت نوره، ثم عدت إلى الشرفة المظلمة؛ آثرت أن أمكث في الظلام وأنا أتابع نوافذ القصر وشرفاته المضاء منها وغير المضاء. وألاحظ الطريق الصاعد المرصّع بالأنوار المتناثرة، بينما أخذت تنثال على ذهني خواطر وأفكار عديدة..

عرضت لي شوارع عابدين ووجوه لأشخاص بالحي يعرفونني، ووجوه لأشخاص اعتدت رؤيتها أثناء ذهابي وإيابي. ورأيت راغب الدهشوري وهو يحوم حول فتاة الحي الجميلة، زميلة بهيرة. وسمعته وهو يهدد والدها تاجر النجف والهدايا بأنه سوف ينالها رغم أنف الجميع. وتذكرت أنني قلت لبهيرة ووالدتي: هل تستحق فريدة كل هذا الصراخ والتهديد؟! وأتذكر الآن أن بهيرة قالت: إنها تستحق أن يضحي من أجلها كل محب صادق مثابر في حبه. وأتذكر أنني تمنيت أن أدخل في منافسة حبها ونوالها. ولكني كنت مشغولاً بحلم السفر إلى كندا؛ فلم أتقدم نحوها خطوة واحدة، رغم إحساسي بتلك الكلمة التي ودعتني بها ليلة سفري: "تذكَّرنا"..

رأيتني فجأة أنهض من مقعدي على صوت مفاجئ لقدمين تقتربان من مقعدي. نظرت في الظلام. رأيت فريدة واقفة بالقرب مني. رأيتها رغم الظلام وضيئة الوجه، بهيّة المرأى، مبتسمة الملامح والقسمات، لامعة العينين. وتساءلت

متعجبًا: كيف بدا لي في الظلام كل ما رأيت؟ ولم يطل عجبي، فقد مدت يدها إليّ فنهضت وتصافحنا، فصدقت أنها فريدة. ولكني تساءلت:

- كيف دخلتِ والباب مغلق؟!

- قلتُ لكَ: سوف تراني مرة أخرى.

- عرفت من شقيقتي أنك متزوجة من راغب الدهشوري.

أجابت بصوت حزين واهن:

- متزوجة، ولا داعي للحديث عن زواجي.

- هل ندمت على الاقتران به؟

فأجابت بسرعة فائقة وبنبرة متشنجة:

- وهل ندمت أنت على هجرتك؟ مضت ثلاثون عامًا.. هل ندمت؟

- سافرت؛ لأنه لم يكن أمامي حل إلا السفر.

- وأنا قبلت الاقتران باثنين قبله؛ لأنك وغيرك آثرتم السفر!

سارعت قائلاً:

- هل يمكن إصلاح ما أفسدناه؟.

- لست متأكدة.

فكررت السؤال:

- هل يمكن إصلاح ما أفسدناه؟.

فأجابت قائلة بصوت هادئ:

- أشعر أنه يمكن إصلاح ما أفسدناه.

اجتاحني شوق غلاب مخزون بصدري منذ عشرات السنين، رغبت في احتوائها بين يدي وضمها إلى صدري. تقدمت نحوها مادًا يدي. لكن اكتشفت أنني ألامس الفراغ والظلام. أسرعت إلى مفتاح النور وأضأت الشرفة.. لم يكن

بالشرفة سواي. أين ذهبت؟، وكيف رحلت دون أن أشعر برحيلها؟ ووجدتني أتساءل: هل ما رأيته حقيقة أم هو محض خيال وتمنٍ ورجاء؟!..

(٥)

آويت إلى فراشي وأغلقت النور. نشط الشوق الغلاب المخزون بأعماقي ينشد الفكاك، ويتمرد على قمع غير مستحق.. فكرت في فريدة فاخترق خيالي النافذة الزجاجية المغلقة. لأُصعّد عيني إلى القصر المزدان بالأنوار الباهرة. فكرت في احتمال أن يقتحم أحد القصر. ولكني استبعدت؛ كيف يمكن أن يتجاوز المرء عيون الحراس الأشداء والكلاب المدربة وعدسات التصوير وأجهزة الإنذار المبكر؟!. وتصورتُ "فريدة" سجينة رغم السماح لها بحرية التنقل.. ونالني الإرهاق وأنا أرسل البصر عبر النافذة الزجاجية المغلقة راجيا أن تراني فتعرف أنني مكترث بها..

رأيتها تبرز في الظلام وتقول بصوت هادئ: لا تبتئس يمكن إصلاح ما فسد، وتقريب ما بعُد، وريّ ما جف. واسترجاع ما فقدناه. ورأيتها تمسح بكفها الصغيرة على رأسي التي استسلمت للمساتها الحانية. ورأيتني أغوص في عينيها العميقتين الحافلتين بمعاني السرور والرضا والمحبة. وسمعتها تقول بصوت حاسم:

- لن أفرّط في حقي عليك بعد اليوم.

وقلت لها وأنا في غاية الرضا والنشوة، بينما رأيتني أقف فوق كتلة إسفنج أو أسبح في الهواء:

- وأنا لن أتخلى عنك. وسوف أقتحم كل صعب.. ومستحيل..

أفقت من غفوتي على رنين جرس التليفون. أضأت النور ولم يكن بجانبي أحد، كان المتحدث زاهد العابد رئيس

مجلس إدارة الفيحاء للإنشاء والتعمير. قال بعد أن غالى في إعجابه بأفكاري:

- أؤكد على موعد الغد. العاشرة والنصف صباحًا.

قلت موافقًا:

- أشكرك، وسوف أكون بمكتبك في العاشرة والنصف.

وتلقيت اتصالاً ثانيًا من المهندس "سامح مطران" رئيس مجلس إدارة شركة "النيل لتعمير الصحاري"، وقال إنه يتطلع إلى مزيد من التعرُّف والتعارف.

- أرجو أن يسمح وقتك لنلتقي قريبًا. أودّ أن أطلعك على أمور حيوية.

واستمعت إلى صوت رجل الأعمال "أكرم الدواخلي" عبر التليفون. وفاجأني بأن حذرني من أشراك تنصب لي.. وقال:

- راجع بدقة أوراق أي مشروع يعرض عليك. ولا توافق قبل أن تستشير، ولا تُعطِ رأيًا في مشروع إلا بعد دراسته والاستئناس بخبراء صالحين.

أطرقت قليلاً؛ أفكر في كلمات "الدواخلي". شعرت بقلق ينمو بداخلي ويثير مخاوفي، ويدعوني إلى الحذر، وإلى استعادة تحذيرات شقيقتي. رغبت في الاتصال ببهيرة والتحدث إليها.. قبل أن تصل يدي إلى التليفون رن الجرس، فرفعت السماعة أملاً في أن يكون الطالب شقيقتي بهيرة، لكن كان المتحدث صاحب صوت أجش شديد النبرات، كان "راغب الدهشوري". وقال بعد أن تبادلنا كلمات التحايا والمجاملات:

- أسفت لعدم تمكني من الاستماع إلى محاضرتك القيمة.
- أبلغني مدير مكتبك بالسبب.
- آمل أن نلتقي قريبًا بمكتبي في الشركة.. وسوف أدعو على شرفك بمنزلي كبار رجال الأعمال، وعددًا من

الشخصيات الاقتصادية. وسوف نتفق على تحديد الموعد المناسب..

بعد أن أغلق السماعة انثالت على رأسي سيول من الشكوك والريب، تيقظت حواسي ونشط ذهني، أحسست بصداع شديد أوجع رأسي. أغمضت عيني لوقت لا أدري مداه. ثم أحسست بالصداع يأخذ في الزوال.. لكني لم أفتح عيني..

أفقت على يدٍ مترفقة تلامس رأسي، وتستقر فوق جبهتي. رأيتني ممددًا على الفراش أُصعّد بصري إليها، بينما امتلأت بالدهشة والعجب. كانت فريدة.. قالت وهي تتخذ مكانها في مقعد يجاور الفراش:

- جئت أحذرك؛ راغب الدهشوري يخطط لإزاحتك.

قلت من بين دهشتي وتعجبي:

- أنا لم أبدأ بعد. فكيف يخطط لإزاحتي؟!

واصلت وكأنها لم تسمع صوتي:

- سيرسل لك أشخاصًا يتظاهرون بالإخلاص بينما هم يضمرون الشرّ والإيذاء.
- لم أحضر إلى مصر للصراع والحرب، ولست خصمًا لأحد.

مددتُ يدي لألمس يدها فلامست فراغ المقعد الخالي. لم تكن فريدة بجواري. أدركت أن ما سمعته وما رأيته مجرد وهْم لا يجب التعويل عليه، ولا يعدو الأمر أن يكون صادرًا عن شدة حرصي على أموالي، ورغبتي العارمة في إنجاز مشروعاتي..

(٦)

استيقظت في السابعة على رنين التليفون. أفاد المتكلم أنه يطمع في مقابلتي قبل أن أغادر إلى شركة "الفيحاء":

- لديّ معلومات تجعلك تفكر مرتين قبل أي اتفاق خاص بمشروعاتك.

صمت قليلاً، ثم واصل:

- المعلومات التي لديّ أكيدة وموثقة.

قلت بشيء من الانفعال:

- من أنت؟ اسمك؟

- أنا سعفان الغانم سكرتير زاهد العابد.

فقلت بفضول شديد تمازجه سخرية:

- خبرني عن هذه "المعلومات الأكيدة الموثقة".

- لن أتحدث في التليفون عن أي شيء. الأفضل أن نلتقي..

- أنتظرك في الثامنة والنصف.. لكن كيف عرفت رقم التليفون؟!.

فقاطعني قائلاً:

- وأعرف أيضًا مسكنك. لا يخفى عليّ شيء، سأصل في الموعد تمامًا.

في الثامنة والنصف دق جرس البوابة.. بعد لحظات جاءني صوت أمن البوابة عبْر "جهاز الإنتركم" يخبرني بوصول سعفان الغانم.. طلبت من شاكر الطباخ أن يصحبه، ويجلسه في صالون الطابق الأول حتى أنزل لمقابلته..

نهض سعفان الغانم حين رآني. تذكرته. كان يجلس بالقرب من مائدة زاهد العابد ليلة أمس في النادي عقب المحاضرة.. شملنا صمت قصير تأملت خلاله سعفان الغانم. في الأربعين تقريبًا. طويل القامة. نحيف الجسم. رفيع العنق. صغير الرأس. مجعد الشعر أسوده. مستطيل الوجه. به شارب منسق رفيع، يعلوه أنف طويل مدبب، عيناه نافذتان فوقهما حاجبان، شعرهما خفيف. قال بفم واسع برزت من بين شفتيه قواطع وأنياب بنيّة:

- أنا السكرتير الثالث لزاهد العابد.

توقف قليلاً، ثم قال:

- معلوماتي أنه يدبّر مع آخرين لإضرارك.

فسألته بريق جاف:

- لماذا؟

- جئتَ للمنافسة والمزاحمة.

- ومَن هم الآخرون؟

- بعض من قابلتهم أمس في النادي.

قلت أستدرجه:

- هل كنت موجودًا؟

- نعم.. واستمعت لمحاضرتك القيمة. وأعجبت بأفكارك. وهذا ما دعاني إلى الحضور اليوم لتحذيرك، ولأكون في خدمتك ورهن إشارتك.

تذكرت تحذير فريدة في وحدتي وأنا بين النائم واليقظان بأن راغب الدهشوري سوف يرسل إليّ من يتظاهر بالولاء.. قلت له مواصلاً استدراجه:

- هل أعجبت بأفكاري فقط؟.

فقاطعني بسرعة وهو يقدم لي بطاقة صغيرة:

- لك تقديرك الخاص. وبهذا الكارت تليفوني المحمول.

تأملته مليًا مرة أخرى. رأيت رأسه الدقيقة تشبه رأس ثعبان الكوبرا المتحفز، فلم أسترح إليه، لا سيما حين هتف قائلاً:

- سوف أكون عينك على كل ما يدور في مكتب زاهد العابد. واطلبني في أي وقت تشاء.

نهضت بسرعة وبعصبية، ومددت له يدي مودعًا وأنا أقول:

- آسف.. لن أحتاج إلى خدماتك.

فسارع إلى القول:

- فكر.. ليس أمامك سواي.

- مع السلامة.

استدار وغادر الصالون.. إلى الباب الخارجي. تابعته وهو يستقل سيارة جديدة تقف أمام الفيلا .. حديثة الصنع.. مارسيدس حمراء آخِر موديل..

فكرت في كلام الرجل بعد اختفاء سيارته الحمراء الفارهة. أدركت أنني مقبل على صراع خفي أو ظاهر لست مستعدًا له. ولم أعدّ نفسي من قبل للتعامل مع "الأشباح" و"الخفافيش" والكائنات المجهولة التي تتوالد دائمًا في الظلام.. وتذكرت تحذيرات فريدة وأكرم الدواخلي، فعاودني صداع الرأس..

هاجمني وهْم جعل يهدّد إحساسي بالأمان الذي كنت أنشده وأنا في بلاد الغربة.. في كندا كنت أقول لمن حولي من

معارف وأصدقاء. متى أعود لأحظى بأمان وطني؟!. سوف أشارك – عندما أعود – في دعم "الأمان" المقترن بالاستقرار. كيف يمكن أن أتعرض لهجوم أو تدمير أو تآمر وأنا أسعى إلى إقرار الأمان لك يا وطني؟! هل حقًا أنا معرض للتآمر والإزاحة؟ أم أن ما سمعته مجرد وهم؟ ولِمَ لا تكون مقابلتي للرجل الثعباني مجرد وهم أيضًا أو حلم يقظة؟! تمامًا مثل وهم لقائي بفريدة ليلة أمس وأنا ممدد في الفراش أعاني من صداع الرأس..

شردتُ بذهني متجاوزًا "رويال سيتي" إلى (أوتاوا)، وتساءلت: هل تسرعت في مغادرتك يا أوتاوا؟! لكن ما لبث أن زاحم تساؤلي صوت رخيم عميق: "لا تصدق كل ما يقال لك. استمر في مهمتك". كان الصوت الرخيم مجلجلاً لدرجة أنني تصورته حقيقة، وأنه لشخص يجالسني بالصالون..

شعرت بحاجة إلى التكلُّم مع فريدة قبل انطلاقي إلى شركة "الفيحاء" المطلة على كورنيش النيل؛ للقاء "زاهد العابد"

حسب الموعد الذي اتفقنا عليه. تمنيت أن أحادثها لبعض الوقت ولكن هيهات أن تتحقق أمنيتي، فبيني وبينك يا فريدة أسوار وحرّاس وكلاب وأسلحة.. هل اللقاء بك يا فريدة مغامرة غير آمنة؟. آه عليّ الآن الذهاب إلى موعد العاشرة والنصف، فرصة لمعرفة النوايا، واختبار مدى صحة المعلومات التي ساقها إليّ سعفان الغانم، وهل تتطابق مصالح زاهد العابد مع مصالح راغب الدهشوري؟ ومرة أخرى تمنيت أن أتحدث إلى فريدة. وهنا تساءلت: هل لفريدة القدرة على اختراق صدور تلك الشخصيات المريبة؟! وقلت في نفسي: أثق أن فريدة قادرة على مدّي بمعلومات تساعدني على فهم ما يجري الآن، وما سوف يحدث في مستقبل الأيام..

(٧)

غادرت السيارة "رويال سيتي".. قادها السائق بسرعة معتدلة حتى قطعنا طريق الأهرام.. جلست وراء زجاج النافذة المغلقة أتطلع إلى مواقف "الباصات" على جانبي الطريق، تقف

بها كتل بشرية. في انتظار باص كبير أو ميكروباص أو تاكسي ليحملهم إلى المهام والأعمال. رأيت المواقف حافلة بالرجال والنساء من مختلف الأعمار.. وثمة تلاميذ وتلميذات ينتظرون. ينتظرون دورهم في الركوب للوصول إلى المدارس. دققت أكثر في الهواء العابث بأغطية الرءوس وبخصلات الشعر النافرة من الرءوس المكشوفة. كان هواء أواخر أكتوبر مائلاً إلى البرودة.. استنشقت في السيارة هواء غير مترب ولا ملوث ولا مشبع بالرطوبة.. سيارتي المارسيدس موديل ٢٠٠٤ حسنة التكييف ومريحة..

بدت في ملامح الوجوه أمارات الامتعاض والقلق. كان الجو غائمًا بلون الرماد. وحجبت السحب الشمس..اقترب الوقت من العاشرة. موعدنا العاشرة والنصف. أوحت السماء الرمادية بنذير عاصفة وهطول أمطار، بينما عكست ملامح الوجوه المزيد من الترقُّب والقلق. ماذا تحمل الغيوم للمنتظرين؟!، وكيف يواجه أصحابها العاصفة والمطر؟، أما زلت يا وطني

حاملاً لهمّ تقلبات الطبيعة؟، أم أن مرور ثلاثين عامًا جعل مواطنيك يعدون العدة لمواجهة نذرها؟ هاهم مواطنوك يسرق الجزع بريق التفاؤل من عيونهم، ويكسو وجوههم بالوهن والشرود. في المدن الأخرى لا يقترن التفاؤل بالثراء. ترى هناك الابتسامة رغم الفقر والاحتياج. الروح تسري في الأجساد المتعبة فيزول الضعف ويتوارى الوهن. كيف تقبل يا وطني أن يسود الوهن مواطنيك؛ فتنحني الرءوس لوطأة التشاؤم؟! مواطنوك يا وطني متشائمون..

اقتربت السيارة من جسر قصر النيل الذي تبدت فوقه حركة سير السيارات بطيئة متثاقلة؛ فتمكنت عيناي من التنقُّل بين المعالم والمشاهد. حديقة القاهرة على اليمين يدخل من بابها عدد قليل من الزوار. في الأمام تمثال "سعد زغلول" مرفوع الرأس، ويشير إلى امتداد الجسر العريق. على جانبي مدخله يربض الأسدان الكبيران منذ عشرات السنين. جاء الاحتلال البريطاني وأبقى عليهما رمزا للإمبراطورية التي لا

تغيب عنها الشمس.. وثمة أسدان يربضان على جانبي مخرج الجسر. كانت ثكنات الغزاة هنا منذ عشرات السنين. كيف أبقى المسئولون على أسود المدخل ومخرجه؟! وكيف رضي المواطنون بهذا الرمز الذي يشير إلى الغزاة؟ أما آن الأوان لإزالة الرموز الموجعة الباعثة على الألم والغضب؟!..

أبصرت على الرصيفين عددًا غير قليل من المشاة. رجال ونساء وصبية وصبايا. بعضهم يمضي بسرعة ليعبر الجسر إلى ميدان التحرير، وبعضهم يقبل من التحرير ليعبر الجسر إلى ميدان "الأوبرا" الجديدة. وآخرون يمشون على مهل. لاحظت أن الوجوه العابرة والوجوه المقبلة لم يكن بملامحها أيّ رضا أو اطمئنان. ورغم أن مياه النيل بالأسفل تخلب البصر، فإن أحدًا من هؤلاء وهؤلاء لا يعنيه النظر. عجبت كيف لم يستمتع بمشاهدة المياه اللامعة أحد؟! وتذكرت أن النيل الفاصل بين القاهرة والجيزة كان محور حديث

السائحين الكنديين عندما كنت ألتقي بهم عقب عودتهم إلى كندا. كم كنت وأنا أسمع لهم أشعر بالفخر وفي نفس الوقت أحنّ إلى مشاهدته. وأقول لنفسي: مضى زمن طويل دون أن أراك يا نيل..

هاهو الآن النيل العظيم المتدفق ما زال مفعمًا بالبهاء والسحر والجلال.. فما بال هؤلاء العابرين والقادمين لا يلتفتون إليه؟! ماذا حلّ بمواطنيّ؟ إنهم لا يريدون أن يبتسموا. إنهم لا يبتسمون. لماذا لا يبتسمون؟! وسألت السائق فجأة:

– قل لي يا شاهين: هل تستمتع بالنيل؟.

فقال بسرعة:

– لا أراه كثيرًا..رغم أني أعبر الكوبري مرات في اليوم الواحد.

ثم سكت برهة، وقال:

- في أحيان كثيرة لا أتذكر أن النيل يجري تحت الكوبري؛ الهموم كثيرة والأحزان لا تفارقني.

- وهل تمنعك الهموم والأحزان من المشاهدة؟!.

- أظل شاردًا أغلب الوقت وإن كنت مركزا في القيادة.

تشاغلت بعبور السيارة ميدان التحرير، لم يكن به زحام يلفت النظر، تأملت العمارات المطلة على الميدان. مازالت قائمة وإن تغيرت بعض اللافتات المثبتة بالشرفات، بينما بقيت أسماء لشركات وأطباء ومحامين..

أدار شاهين السيارة نصف دورة، ثم قطع ميدان عبد المنعم رياض وشارع الجلاء ليأخذ طريق الكورنيش عابرًا بماسبيرو ليتجاوز إشارة "أبو العلا" الخضراء. ثم أبطأ السائق، ثم توقف لعبور حشد بشري يقصد الجانب الآخر من الشارع.. سألت شاهين أثناء التوقف:

- من أين يأتي هذا الحشد؟

فبادر إلى القول:

- من وكالة البلح.

سكت مليًا، ثم قال:

- تغيرت الوكالة.. بها جزء صغير لبيع الخردة.. وتحول أغلبها إلى محلات لبيع الأقمشة، والملابس الجاهزة، والسجاد، وفساتين الزفاف، وبدلات العرسان.

نظرت مرة أخرى في وجوه الخارجين من "الوكالة" والداخلين إليها.. لاحظت الوجوم يتملك ملامح الوجوه التي تنضح بآثار كدح، وتنساب منها بقايا أحاسيس الشقاء، وكانوا جميعًا صامتين شاردين. الرجال والنساء والصبايا والشبان صامتون. لِمَ هم صامتون؟ إنهم يحملون المشتريات التي اختاروها بإرادتهم. ولكنهم غير سعداء. وقال شاهين يوضح سبب الإقبال على الوكالة:

- يأتون إلى الوكالة؛ لأن الأسعار منخفضة عن أسعار محلات وسط البلد والأحياء السكنية.

عدت إلى التأمل، فرأيت صبية جميلة وسط سيدتين، إحداهما بدينة. تحمل الصبية فيما يبدو فستان زفاف.. لكن وجهها مشحون بالتعاسة والشرود، بينما راحت تغتصب ابتسامة ضيقة خاطفة كلما كلّمتها السيدة البدينة. فتساءلت: كيف يجتمع الجمال والتعاسة في هذه الصبية العروس؟! وهل هي مُكْرَهة على الزواج أم أنها غير مطمئنة إلى مستقبل زواجها المنتظر؟. ومتى تفرح العروس إذا لم تفرح الآن؟!. وقلت في نفسي: يبدو أنها مكرهة على الزواج ممن لا تحب. من ينقذ العروس من حياة مستقبلية لن تنجب إلا الكراهية والمقت؟! وقلت لنفسي: هل يمكن أن يتقدم أحد وينقذ العروس الشاردة المقهورة؟!..

تحركت السيارة عندما كفت الأقدام عن العبور.. اتجهت إلى شركة الفيحاء المطلة على النيل. كانت الساعة تدنو من العاشرة والثلث. هبطت من السيارة، ومضيت تجاه المبني الضخم المشتمل على عشرين طابقًا.. أمام المدخل البيضاوي المزود بإجراءات أمن وأجهزة كَشْف وجدت سعفان الغانم في استقبالي..

أسرع يسبقني بأدب شديد إلى باب المصعد الذي صعد بنا إلى الطابق الثامن. ثم تقدمني بنفس الطريقة المهذبة إلى مكتب "زاهد العابد"..

استقبلني الرجل بحفاوة شديدة. بقينا حوالي ربع ساعة تناولت خلالها فنجان قهوة. جعلت وأنا أرتشفه أتجول بعيني في الحوائط الثلاثة بجانبيّ وأمامي. ثمة إطاران كبيران يضم كل منهما لوحة حريرية بها آية قرآنية مطرزة، في اللوحة

الأولى آية ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، وتتوسط الثانية آية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾. ويقع بين اللوحتين إطار مربع يضم سجادة فاخرة في وسطها آية مطرزة ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. بينما علاها مصحف كبير مفتوح على سورة الفلق ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ {١} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ {٢} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ {٣} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ {٤} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. على حين انتشرت بفضاء المكتب رائحة بخور مريحة للنفس والأعصاب..

بعد فراغي من فنجان القهوة انتقلنا عبر باب بغرفة المكتب إلى قاعة الاجتماعات التي تتصدرها منضدة مستديرة يجلس حولها أربعة رجال، نهضوا جميعًا حين دخلنا. قدمهم لي "زاهد العابد" واحدًا واحدًا، ثم قال:

- رجال أعمال، لهم نشاطهم الملحوظ، وإنجازاتهم المعروفة..

تبادلنا التحايا والابتسامات، وجلسنا جميعًا متحلقين المنضدة المستديرة التي حفل سطحها بأوراق ذات أرقام ورسوم لمشاريع خاصة بالصحراء والمدن البعيدة عن العاصمة، عرضها زاهد العابد.وقدّم الرجال الأربعة الآخرون مشروعات تختص بالمدن الساحلية كدمياط، وبورسعيد، ورشيد، تُعْنَى بالثروة السمكية الحيوية في الوطن. وقال أحدهم ويدعى "شوقي الماروني":

- التوسع في الصيد البحري بالأساليب الحديثة سيفتح المزيد من مصانع التعليب، ويسهم في حل مشكلة البطالة. ويدعم الاقتصاد الوطني.

وقال رستم الباجوري:

- ويقتضي التوسّع التعاقد على شراء سفن صيد مجهزة لتخوض أعالي البحار، كما تفعل شركات الصيد الأوربية والأمريكية.

وقال زاهد العابد:

- المهم الاتفاق على تكوين الشركة، ورَصْد رأس المال الذي أقترح أن يكون ٦٠ مليون جنيه. يدفع كل منا نحن الستة عشرة ملايين، فما رأيكم؟

أسرع الرجال الأربعة بالموافقة.. واقترح "رأفت المنشوري" أن نقوم بتحرير شيكات باسم "زاهد العابد" الذي عقّب على الاقتراح بطرح اسم للشركة وهو "الشركة الوطنية للنهضة الاقتصادية". وقال "شعلان البربري" بصوت وقور:

- أقترح أن يتولى رئاسة الشركة مؤقتًا المهندس زاهد العابد حتى يتم تشكيل مجلس الإدارة وإجراء الانتخابات اللازمة.

وهنا قال زاهد العابد:

- ولِمَ لا يكون الدكتور مختار الصالح رئيسًا للشركة؟

فبادرت إلى تأييد اقتراح "شعلان البربري" بترشيح زاهد العابد.. وقلت:

- وأنا أوافق على ترشيح المهندس زاهد من حيث المبدأ، وإن كنت أرى أن هيكل مجلس الإدارة سوف يعاد النظر فيه فيما بعدُ؛ ليأخذ صفة الرسمية.

تابعت أثر كلامي على الوجوه الخمسة، فلاحظت بعض الامتعاض؛ لأنهم فهموا أن الترشيح ليس نهائيًا. وسمعت صوت شوقي الماروني يقول بحماس بالغ وهو يبرز دفتر شيكاته:

- هاهو شيك بعشرة ملايين باسم زاهد العابد.

ومر الشيك أمام أبصارنا، وحاكاه الثلاثة الآخرون، وكذلك زاهد العابد. ولكني لم أفعل، فقد طلبت موعدًا آخر

نجتمع فيه بعد الاتفاق الرسمي على تشكيل مجلس الإدارة. على أن يتولى المحامون المعتمدون تأمين مبلغ رأس المال بالشكل القانوني. ومن ثم تتم الإيداعات لحساب الشركة، وليست لحساب فرد معين..

تبادلنا التهاني واحتيسنا عصير البرتقال في الصالون الملحق بالقاعة.. جلسنا نتحدث بعض الوقت. ثم بدأ الرجال الأربعة في الانصراف الواحد تلو الآخر على وعد بلقاء قريب؛ لحضور إجراءات التشكيل لإشهار الشركة..

لاحظت أن زاهد العابد والرجال الأربعة لم يَرُق لهم الكلام عن "الرسميات" التي سماها "شعلان البربري" الروتين المعطّل والبيروقراطية المضيعة للوقت. ولكني تغافلت عن إحساسهم، ومضيت في حديثي مع زاهد العابد. ولم أجد بُدّا من الانصراف أنا الآخر؛ خاصة بعد أن لمحت زاهد العابد يرمق ساعة يده في عصبية..

تقدمت نحو المصعد الذي سبقني إليه "سعفان الغانم"، وفي المصــــعد رأيــت في عينيه قلقًا أقــرب إلى التوتر. كما وجدتهما تتحــاشيان نظــراتي. وتســاءلت: هل لقلق العينين وتوترهما علاقة بالاجتماع الذي انفض منذ قليل؟ هل يمكن أن يكون لدى الشاب تفسيرٌ لعصبية زاهد العابد؟ ولماذا انصرف الرجال الأربعة قبل انصرافي؟ أليس من اللائق أن يكونوا مع زاهد العابد وقت رحيلي؟ كيف انصرفوا قبلي على هذا النحو المثير للريبة؟ وهل انصرافهم سبق الاتفاق عليه مع زاهد العابد؟ ثم من هؤلاء؟ قدمهم لك زاهد العابد على أنهم رجال أعمال بارزون؛ فمن أين لك أنهم رجال أعمال حقًا؟.. الواقع أنني غير مستريح، وأشعر تجاه الجميع بالشك والارتياب..

(٨)

حين استقررْتُ في السيارة فكرت في زيارة الدكتور نظمي الفاتح بمكتبه في ميدان سفنكس. أردت أن أشاوره في

مشروع تشكيل الشركة. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة.. طلبته من تليفوني "المحمول"، فرحب بالزيارة التي بالتأكيد ستسره وتسعده.. قصدت المشاورة؛ لأني شعرت بقلق متنامٍ عندما فكرت في الرجال الأربعة، لا أذكر أنني التقيت بأي واحد منهم في حفل الأمس بالنادي. وعدت إلى التساؤل: لماذا انصرفوا تباعًا قبل انصرافي؟ وكيف ينظر زاهد العابد في ساعته وأنا جالس معه قبل أن أشرع في المغادرة؟!

اتجه شاهين بالسيارة نحو جسر أكتوبر قاصدًا ميدان "سفنكس" كما أخبرته.. كانت الغيوم ما زالت منعقدة. وازدادت نسبة الرطوبة في الجو؛ فرفعت زجاج السيارة إيذانًا بتشغيل تكييفها المضاد للرطوبة والإحساس بالحرارة. ولم ألتفت إلى مياه النهر ونحن نعبر الجسر رغم بطء السير وتكاثف السيارات الأمامية والمجاورة من جهتَي اليمين واليسار. ورغم أنني أرتبط بموعد مع الدكتور نظمي الفاتح بعد قليل، فقد وددت أن

أصل بسرعة إلى "رويال سيتي"؛ شعرت بحاجة ماسّة إلى الانفراد للتفكير في موقف اليوم بما أثار من مشاعر غير مريحة.. أبرزها الشعور بالهم لفقدان الأمان..

تضاعف "همّي" وازداد حين رنوت إلى قائدي السيارات المجاورة ومرافقيهم. والسيارات القادمة في الجانب الآخر من الجسر وركابها، رأيت الوجوم الشديد يتمكن من الوجوه بالسيارات المحاذية، ومن الوجوه بالسيارات القادمة العابرة في الجهة الأخرى. كانوا غير مبتسمين. برزت في الملامح سيماء الهمّ والأسى؛ فتذكرت ملامح الكنديين الذين كانوا دائمًا متفائلين، رغم الأعمال الشاقة التي يؤدونها كانت وجوههم تنضح بالبشر والتفاؤل وهم في الشارع والمصنع والمحلات العامة.. وفي السيارات –غالبًا– كان الرجال والنساء والشباب ترتسم على وجوههم ابتسامات حقيقية..

مال السائق شاهين بالسيارة حين هبط إلى مَنْزَل "إمبابة" حسب اللافتة الزرقاء. جاوزت النهر ولم أشعر برغبة إلى النظر في مياهه. كنت مازلت مهمومًا بمشاعري المتزاحمة المتدفقة، وكان الشارع مكتظًا بالسيارات وبرجال ونساء وأطفال يعبرون وسط السيارات إلى كلا الجانبين. ضقت بهذه الفوضى فتطلعت إلى الفضاء الظاهر من زجاج السيارة؛ كانت الغيوم الرمادية منعقدة يخالطها دخان متصاعد حجب زرقة السماء..

لازمنا الزحام وتباطؤ حركة السير، فعادت الوجوه الكابية تتوالى على بصري دون توقف أو تراجع. ولم تكن الحشود البشرية الراجلة وهي تتحرك ببطء معنية بماء النهر القريب الذي لا يفصلهم عنه سوى كورنيش حجري قصير، فعاودني التعجب وساورني إحساس العجب.. بينما السيارة تميل إلى اليسار متجهة إلى الميدان..

وقت نزولي من السيارة التي توقفت أمام العمـــارة رقم (١٧)؛ لأصعد إلى مكتب "نظمي الفاتح" في الطابق الثاني – تجمـــدت في مـــكاني وأنا في غـــاية من الدهشـــة والعجب والاضطراب؛ أبصرت أربعة شبان مفتولي العضلات يعترضون طريق شاب أنيق تجاوره شابة صغيرة حسناء بدا لي أنها زوجة الشاب.. وكان النهار الرمادي مازال قائمًا، وثمة رطوبة تتخلل نسمات خريفية تعبث بورقات تتساقط من أشجار الرصيف المقابل للعمارة. تقدم الشبان الأربعة من موقع وقوف سيارتهم الـــ (B.M) الزرقاء وتحرشوا بالشابة الحسناء. فلما واجههم زوجها الشاب انهالوا عليه بالأيدي والأقدام في ضربات وحشية متتابعة. فلاكمهم الشاب طويلاً ولكنه ما لبث أن سقط فاقد الوعي.. وجدتني أصيح بعدد من المارة كانوا يكتفون بالمشـــاهدة. ثم أســـرعت إلى مكـــان الموقعة على الرصيف المقابل تحت الشجرة التي تتساقط منها الورقات الجافة. وقبل أن أصل إليهم حملوا الشابة بالقوة وأدخلوها

عنوة السيـــارة الزرقـــاء التي انطلقت كصــــاروخ في شارع "جامعة الدول العربية"، بينما تعالى صراخ الشابة الحسناء مستغيثة ومستنجدة. لقطت رقم السيارة وسجلته في مفكرة جيبي، وهرعت إلى تجمُّع من الناس شهد الواقعة الغريبة. بعضهم مضى ممتعضًا، والبعض الآخر اكتفى بإبداء الأسف. وقال أحدهم حين رأى في وجهي ملامح الهلع:

– لا تحزن يا بيه حكاية تحدث دائمًا.

رجعت إلى السيارة، وطلبت من شاهين أن يسرع خلف الجناة.. حرّكَ السيارة بسرعة محاولاً اللحاق بهم، ولكنهم لاذوا بالهرب بعد أن احتجزتني مع سيارات أمامية إشارة المرور الحمراء.. حمدت الله أن سجلت رقم السيارة الهاربة.. وقلت لشاهين:

– أوصلني إلى أقرب قسم شرطة..

فانحرف إلى اليمين، ومضى إلى آخر مبنى في الشارع الذي انحرفت إليه.. قسم شرطة الدقي.. لأثبت الحالة، ولأدلي بإفادتي عن حادثة الاعتداء والاختطاف.. تقدمت من الضابط الشاب وأنا في حالة من الاضطراب والتوتر، عرّفته بنفسي: أنا مختار الصالح؛ جئت للإبلاغ عن جريمة وقعت في وضح النهار في ميدان سفنكس..

سردت له الحادث . ثم قلت بصوت متوتر:

- يجب الإسراع لمطاردة الجناة؛ لإنقاذ الزوجة المخطوفة.

عاملني الضابط ببرود وجفاء، وطلب منّي الانتظار قليلاً حتى يفرغ مما هو فيه. لم يكن ثمة ما يشغله عنى إلا تبادله لحديث جانبي مع ضابط شاب يماثله في العمر والرتبة.. عندما ارتفع صوتي قليلاً بأن الأمر لا يحتمل التأخير:

- أرجوك.. خذ إجراءاتك وعليك بالمطاردة.

مال رأسه إلى اليمين ونظر في نجمتين لامعتين على كتفه الأيمن، ثم مال إلى اليسار ورمق نجمتين على كتفه الأيسر، ثم صاح بصوت عنيف:

– يا سيد، هل ستعلمني كيف أعمل. اسكت.

ومع ذلك فتح "المحضر"، وعمد إلى تسجيل إفادتي عن الحادث. وقبل أن أفرغ توقف عن التسجيل لمكالمة وردت على تليفونه المحمول، فتوقف تمامًا عن إكمال إفادتي.. حيث اندفع في المكالمة التي بدت لي أنها عاطفية. تأففت.. وأعلنت بعد فترة صمت ليست قصيرة – احتجاجي؛ فأشار إلى زميله الضابط الشاب الذي يحمل كتفاه أربع نجوم لامعة. فأكمل المحضر، ووقعت على إفادتي وانصرفت..

فكرت أثناء الطريق إلى "رويال سيتي" في الحادث الغريب، وتقاعس المشاهدين وصمتهم، وتقاعس الضابط ووهنه وفتور تحمسه. وفرار الشبان الأربعة بالمرأة الشابة التي ما

زال صراخها المستغيث يرنّ في أذني؛ كيف يمكن إنقاذ هذه المرأة التي ضُرب زوجها، وتم خطفها عنوة تحت التهديد في وضح النهار أمام الناس!!. وهل نقابل الحادث ببرود وتأجيل لمجرد أن ما حدث "حكاية تحدث دائمًا"؟! وأين الشرطة؟ وأين القانون؟ وكيف تصرّف الضابط في قسم الشرطة على هذا النحو المزري؟ وكيف يمكن أن أتقبل الأمر وأمضي بسلام إلى مسكني؟!..

لم أجد بنفسي رغبة في الذهاب إلى مسكني رغم أننا كنا نقترب من الطريق المؤدي إليه، فطلبت من شاهين أن يعود بالسيارة إلى مديرية أمن الجيزة لحثّها على الإسراع بالمطاردة.. وقد استجاب مدير الأمن لرغبتي في مقابلته.. فأمر بسرعة "ضبط وإحضار الجناة"، وشكرني الرجل على اهتمامي بالإبلاغ عن الحادث ونحن نحتسي القهوة.. ثم ودّعني حتى باب المصعد وهو يطمئنني..

قبل خروجي من باب المديرية تلقيت اتصالاً على تليفوني المحمول كان المتحدث "راغب الدهشوري"، خفق قلبي بالقلق وأنا أسمعه يدعوني إلى مقابلته في مقرّ الشركة بشارع مراد. وقال:

- أرجو أن تشرّفني بالزيارة.

كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا.. وشارع مراد غير بعيد؛ ولذلك قلت:

- سوف أحضر في الثالثة والربع.

تنامي القلق وتضاعف همّي وأنا أتجه إلى موقف سيارتي، التي مضى بها شاهين إلى شارع مراد، حيث مقر شركة "الإنشاء والتعمير" بالعمارة المطلة على حديقة الحيوان كما أخبرني شاهين..

(٩)

تساءلت قبيل الوصول إلى مقر الشركة: كيف تقبّل شهود الحادث عملية الاعتداء والخطف بهذا الجمود المخزي؟!

وهل يشفع لهم أن ما أفزعني مجرد "حكاية تحدث دائمًا" كما قال أحد الواقفين على الرصيف! وقلت لنفسي: إن ما حدث اعتداء صارخ واختطاف وحشي، ودمار مؤكد سوف يلحق بالمرأة الشابة..

حين اقتربت السيارة من تمثال "نهضة مصر" القريب من البـــاب الرئيسي للحديقة تأمّلته، وفكـــرت في الفلاحة المصرية الشامخة تلتصق بجسم أبي الهول.. فكرت في دلالة التمثال العريق يبعث في نفسي مشاعر الجسارة والقوة.. ولكن ما لبثت أن شعرت بمشاعر الإحباط والخزي.. كيف يمكن الصمت على هذه الجريمة التي تمّتْ في وضح النهار وتحت السمع والبصر؟!.. ثم وجدتني أفكر في لقاء الصباح بقاعة "زاهد العابد"؛ فأحسست بقلق جعل يزداد حين قفزتْ إلى ذهني صور الرجال الأربعة وهم ينصرفون الواحد تلو الآخر بنظرات غير مريحة؛ لأنني أرجأت البتّ النهائي في تكوين الشركة؛ لاستشارة الخبراء والمختصين. وفكرت في أنني توجّست

عندما نظر "زاهد العابد" بسرعة في ساعة يده بعد انصراف الرجال الأربعة، وعندما تبدَّى الجمود في ملامح وجهه، ورأيتني أتطلع إليه في عجب لم يَخْفَ عنه، فملامحه التي استقبلني بها خالفت تمامًا ملامحه التي ودّعني بها.. استقبلني بالبشاشة والترحاب، وودّعني بالعبوس والجمود. الآن أشعر أن ثمة جداراً يفصلني عن زاهد العابد.. واندداح في نفسي بقوة شعور بالقلق ما لبث أن زاحمته الفلاحة الشابة وأبو الهول الراسخ؛ فاعتراني إحساس بالجسارة والتفاؤل. فقلت: إن عليّ أن أتسامح؛ لأنّ استخراج المعدن الأصيل يحتاج إلى صبر وأناة. ولا يمكن أن يحجب "زاهد العابد" وأمثاله إلى الأبد المعدن الأصيل..

وصلت إلى مقر الشركة قبل الموعد بخمس دقائق.. قصدت الصعود إلى الطابق العشرين. دخلت في مصعد زجاجي يشرف على حديقة مزدهرة يتوسطها حوض مياه زرقاء. وابتداءً من الطابق الثاني تبدو للعين حديقة الحيوان بما تحفل من طيور

وحيوانات نادرة، وبحيرات صناعية، وأقفاص قرود بأصنافها المختلفة..

في الموعد المحدد تمامًا سبقتني السكرتيرة الحسناء لتفتح لي باب مكتب "راغب الدهشوري" الذي هبّ واقفًا يرحب بي، ويغادر مكانه من خلف المكتب؛ ليستقبلني في منتصف الحجرة الواسعة ذات الجدار الزجاجي المطل على الحديقة.. وقد ساعد ما شاهدته وأنا في المصعد الزجاجي، وما لمسته من حرارة الاستقبال على أن إحساس القلق الذي شملني منذ مغادرتي مديرية الأمن – قد خف قليلاً وتوقف ؛ لدرجة أنني عجبت من "التحذير" الذي صدر من "فريدة"!. قال راغب بعد أن اطمأننْتُ في الفوتيه الوثير:

– أعجبت بأفكارك التي طرحتها أمس في النادي.

فقلت مندهشًا:

– أعجبت؟! لم أتشرف بلقائك أمس؟

- وصلتني دعوة رئيسة النادي. ولكن كنت في الإسكندرية لارتباطي بموعد مسبق.

فتساءلت بحذر:

- وكيف بلغتك أفكاري؟!

فقال بثقة كبيرة:

- لي مصادري.. أعرف كل شيء يجري في البلد.

فقلت مختبرًا ثقته الكبيرة:

- فهل عرفت بموعدي صباح اليوم؟

- نعم. وأبارك تكوين شركتكم الجديدة.

صمتُ مستغربًا، فأضاف:

- يمكنني التعاون بخصوص إنشاء شركة "تنقيب عن البترول في الصحراء الغربية"..

تحفّز في نفسي الشعور بالطموح، فقلت بحماس:

- أول عرض أتلقاه عن "البترول".

فواصل وكأنه لم يسمعني:

- المشكلة في حجم التمويل.

سكت برهة، ثم قال وهو يقدم لي ورقتين:

- هذا تقرير عن مكان التنقيب، والتحليلات المبدئية لتربته، وطاقة إنتاجه بعد الكشف واستخراجه.

تسلّمت منــــه الورقتين، وجعلت أنظر فيـــهما بعينين محبتين.. تذكرت سنوات طموحي البترولي في كندا..وحدثتني نفسي بأن العمل الأساسي سوف يبدأ بهذا المشروع.. يمكن بالنجاح فيه الكشفُ عن أماكن بترولية أخرى. فكم قرأت في الصحافة الأوروبية والأمريكية أن بالصحراء الغربية مخزونًا بتروليًا هائلاً يحتاج إلى تمويل كبير لاستخراجه..

- ادرس المشروع بهدوء. خذ وقتك.. واستشر إن أردت.

تعجبت من ثقته بنفسه واتزان صوته.. ورمقته وهو يشعل "غليونه" بعود ثقاب، ورأيته ينهض من مقعده خلف المكتب ويمشي خطوات قليلة في الغرفة "الزرقاء" الواسعة بالطابق العشرين. مديد القامة. شعر رأسه المجعّد مزيج من السواد والبياض.يميل إلى البدانة. شاربه كثّ، تخالطه شعرات بيضاء، كما زاحم شعر العارضين شعر أبيض. تتسم عيناه بالصرامة، وملامحه بالحدة..

لم أجد في شخصيته ما يريب، ولم أشعر نحوه بأي ضيق ولا نفور؛ ولذلك تساءلت عن حقيقة التحذير الذي أطلقته "فريدة".. ورأيتني أستبعد أن يكون واقعيًا، فهمست لنفسي: إنها لم تزرْني. كل ما سمعته وما رأيته مجرد وهْم وتصاوير خيال..

عدت بتركيزي إلى راغب الدهشوري. فقلت وأنا أهز الورقتين:

- التقرير ممتاز. وأوافق عليه مبدئيًا.

- من الضروري إشهار الشركة.. رأس المال المرصود للمشروع مبلغ ٥٠٠ مليون جنيه . يكون مناصفة.

- أوافق..وإن كنت أحتاج بعض الوقت للتفكير والاستشارة.

- خذ وقتك. المهم الاقتناع بالمشروع...

عاد إلى مقعده بشيء من العصبية.. ربما لأنني علّقت موافقتي بالتفكير والاستشارة. ورأيته يكرر نفث دخان غليونه الذي انعقد في فضاء الغرفة. فاختلطتْ بهواء التكييف البارد رائحة التبغ. فشعرتُ بخدر لطيف أشعرني بشيء من الوهن، الذي جعلني أطرق للحظات في شبه إغفاءة لم تستمر طويلاً؛ فقد سمعت "راغب" يرحب بزائر دخل الغرفة.. رفعت رأسي لأكتشف أن الزائر ليس سوى "فريدة" كانت تقف أمامي تمامًا.. نهضت مندهشًا. فقال بصوت رخيم، وهو يقدمها لي:

- فريدة البدري.. زوجتي.

مدت يدها.. فمددت يدي المرتعشة وأنا بين المصدق لعيني والمكذّب، هل ما أراه حقيقة، أم تصاوير وهم وتصورات خيال؟! حسنًا إن كل شيء يتضح فلا حاجة إلى شحذ الذهن والمعاناة والغياب في أحلام اليقظة بعد الآن. هاهي تجلس أمامك بنفس الابتسامة الواسعة الواثقة المطمئنة. وهاهي تسلط عليك نظراتها الحانية الحافلة بالمعاني. وهاأنت قد لامست كفها الصغيرة لأول مرة- بدون خيال ولا حلم نوم أو يقظة- ولكني رغم ذلك عدت إلى التساؤل: هل ما أراه الآن مجرد حقيقة أم تصورات وهم وخيال؟! أخرجني من التساؤل صوت راغب الدهشوري يوجه لي دعوة بصوت جهوري:

- يسعدني وفريدة أن تشرفنا بالزيارة. نرجو أن تقبل دعوتنا على العشاء بمنزلي. وسوف ندعو الدكتورة بهيرة.

بادرت بالشكر فواصل:

- إذا وافقك موعد الغد بادرت بدعوة عدد من الشخصيات على شرفك. هل موعد الثامنة مساء الغد مناسب؟

أجبت بينما أشعر بنظرات فريدة تدعوني إلى قبول الدعوة:

- مناسب.

فبادر قائلاً:

- سنكون سعداء جدًا بحضورك.

توقف راغب الدهشوري برنين جرس التليفون الأحمر. حين رفع السماعة واندمج في الحديث تفقدت بفضول الغرفة الزرقاء. كنت ما أزال خاضعًا لتأثير الغفوة التي ظهرت فيها فريدة. ولكن سرعان ما رددت لنفسي: كانت الزيارة مجرد وهم يلازمني ويلاحقني. ولست أجد في الرجل- رغم التحذير منه - سوى رغبة في بناء جسر تعاون بيننا. وهذا أمر في حد ذاته يريحني إلى أن يظهر ما يؤكد "التحذير"، فضلاً عن أنه وافق على اقتراحي بأن "أستشير" الخبراء والمتخصصين

من جانبي، قبل أن أخطو خطوة تجاه المشروع. ولا أظن أنني مؤهل ولا مستعد لخوض معارك لم يظهر لي حتى الآن أي دليل على بوادرها. فأفكاري ملكي، كما أن أموالي لم تتحرك من البنوك.. فكيف يخامرني شك في مثل هذا الرجل؟!..

ودعت الرجل وانصرفت.. مضيت إلى المصعد الزجاجي الذي بدأ في الهبوط، بينما واجهني ظهر عامل المصعد.. وأخذتني لحظة شرود عميقة للحظات اكتشف خلالها أن العامل ليس إلا فريدة بقوامها المعهود، ونظراتها الحانية. هرعتُ إليها وهرعتْ إليّ . رأيتني أمسك بكفيها برفق، فقالت بصوت رصين، وإن لم يخل من التوتر:

- لا تطمئن له. لا تطمئن إلى أحد.

- أنت حضرت في المكتب. ولم تحذريني.

- حذرتك من قبل.

- لكنك لم تحذريني في المكتب.

ضمنا صمت لبرهة، ثم قلت:

- هاأنت الآن معي في المصعد على غير توقع.
- سأحضر دائمًا.. وسوف أحذرك دائمًا. في أي مكان، وفي أي وقت.
- هل أنت حقيقة أم خيال؟!.
- أنا حذرتك.. وسوف أحميك من أي خطر..
- وحفل العشاء؟ هل هو حقيقي؟
- نعم حقيقي. أخبرني به راغب ووافقت ورحبت. وسأسعد بحضورك.

وفي لحظة رأيتها تخترق الزجاج وتندفع إلى الهواء تمشي فوقه، بينما جعلت أتابع خطواتها بهلع، حتى سمعت عامل المصعد ينبهني إلى أن المصعد قد وصل إلى الطابق الأرضي. فمضيت أخطو في البهو الفرعوني نحو الباب الخارجي الذي تقف أمامه سيارتي التي سرعان ما أقلتني إلى رويال سيتي..

(١٠)

في السابعة مساء صعدت السيارة في طريق يقف على جانبيه حرّاس يحملون بنادق آلية قصيرة. وبجوارهم كلاب حراسة مدرّبة.. وقف السائق أمام الباب الكبير البيضاوي الشكل المطعم بنجوم نحاسية كبيرة موزعة على أركانه.. هبطت من السيارة تصحبني بهيرة، واتجهنا إلى الباب الذي سرعان ما انفتح في لحظة اقترابنا منه. استقبلنا شاب يرتدي بدلة سوداء. مهذب متين البنيان.. طلب بصوت خفيض أن نصحبه إلى الداخل، سبقنا يفسح لنا الطريق. مضينا إلى بهو واسع أفضى إلى قاعة كبيرة ذات صالون كلاسيكي عريق..

تصدر القاعة "راغب الدهشوري" تجاوره فريدة بجمالها المعروف وبهائها المعهود. كانا واقفين إلى جانب تمثال نصفي برونزي لراغب. وخلفهما صورة بالألوان كاملة لفريدة تقارب الحجم الطبيعي. ترتسم على شفتيها المكتنزتين ابتسامة جانبية خفيفة غامضة، تشبه ابتسامة الموناليزا أو الجيوكندا، التي

احتار المشاهدون حتى اليوم في معرفة معناها أو ما تدل عليها: هل هي سخرية أم حكمة أم دهاء أم سذاجة؟!..

تقدم راغب الدهشوري خطوات، وتقدمت فريدة أيضًا خطوات، فأسرعت نحوهما مادًا يدي، وكذلك فعلت بهيرة. صافحني الرجل بيد غليظة مكتنزة قوية، بينما صافحتني فريدة بيد صغيرة رقيقة.. نهض رجال ونساء من مقاعدهم المنتشرة في القاعة.. رجال أعمال وسفراء، ورجال من الحزب. صافحت الجميع. جلست واكتشفت أنني في صدر القاعة؛ فدل ذلك على أنني الوحيد المحتفى به..

اندمجت في أحاديث جانبية لبعض الوقت قبيل العشاء مع رجال ونساء التقيت بهم في النادي، وآخرين أراهم للمرة الأولى. ولم تفارقني عينا فريدة. كانت نظراتها الحانية تحوطني وترعاني. وكانت عيناها تتابعاني كلما ابتعدت عن موضع وقوفهما، بحكم تنقلي المستمر بين المدعوين؛ لتبادل

التحايا والأحاديث. طول الوقت أشعر بها تراقبني. كم سعدت بالمتابعة والمراقبة. وقد أدركت شقيقتي بهيرة مشاعرها حيث بدت في عينيها معانٍ أقرب ما تكون إلى القلق. اتفهم قلق بهيرة ولا أنكره.. فثمة مشاعر الريب تجتاح صدرها منذ جريمة مقتل زوجها "رشدي العامري"، التي قيدت ضد مجهول. أشعر دائمًا أن بهيرة لم تفضل أبدًا قيد الجريمة ضد مجهول.. إنها دائمة البحث والتحري لعلها تصل إلى الجاني. وربما لديها شكوك حول شخص ما في هذه القاعة..

تصدرت طاولة الطعام بوصفي المحتفى به.. جلس على يميني راغب الدهشوري، وعلى يساري اتخذت مكانها فريدة التي كانت تختلس النظرات إليّ بين الحين والآخر، بينما احتار المراقبون لها في ابتسامتها الحانية الموناليزية؛ فلم يستطع أحد من الحاضرين أن يحدد معناها تمامًا، وربما تساءل بعضهم: لمن تبتسم وتخصه بابتسامتها الحانية؟ وربما

كان من الحاضرين من له رأي آخر في هذه الابتسامة. ربما وصفها بالسخرية أو الدهاء أو المكر كما وصفوا ابتسامة موناليزا ديفنشي..

مرة أخرى تعانق نظراتي نظرات بهيرة التي بدا لي أنها غير قادرة على إخفاء "قلقها" الظاهر في ملامح وجهها، والذي تجتهد في تخفيفه وإخفائه. فتساءلت عن السر القابع وراء هذا القلق؛ هل لراغب دور في تعاسة بهيرة؟ ألم يكن من الأنسب أن تحدثني عما لا أعلمه؟ كيف يحق لبهيرة أن تختزن في صدرها سرًّا وأنا الوحيد الباقي من أسرتنا؟! هل أتوقع أن تتمخض النظرات عن إجراء من جانبها، ربما يساعد على تبديد قلقها المتمكن الذي تعدّاها إلى نفسي فأراه قد شرع في التمكُّن مني؟!..

هاهي مقتــرحات وأفكــار تتصـــاعد في فراغ القاعة المكيفة الهواء المعطرة بورود راقية وبعطور النساء والرجال،

والتي تتخللها سحابات أدخنة التبغ والسجائر، فتوقفت بعض الوقت عن التفكير في هموم شقيقتي بهيرة . ونظرات فريدة..

ولكن عند العاشرة بدأت الأفكار المقلقة تزحف إلى ذهني المزدحم بالشخصيات والمقترحات؛ لا سيما حين انفض اللقاء وخرجت وبصحبتي بهيرة مودّعًا من الحاضرين، وفي مقدمتهم راغب الدهشوري وفريدة البدري اللذان رافقانا حتى الباب الرئيسي للقصر المتلألئ بالأضواء، وظلا واقفين حتى استقللنا سيارتي حيث قادها شاهين الذي تم استدعاؤه بواسطة جهاز الأمن من موقف السيارات.. وقد لاحظت ونحن نهبط من المرتفع الحراسَ المدججين بالسلاح، والكلاب المتحفزة، وكاميرات المراقبة المثبتة على السور الهابط،والسور الصاعد..

غادرت بهيرة سيارتي إلى فيلّتها بعد أن تواعدنا على لقاء لنلبي دعوة د. نسمة وزوجها، ومضى السائق بي إلى فيلّتي التي تبعد عن فيلا بهيرة بمسافة قصيرة. واتجهت عقب

فراغي من صعود السلم الداخلي إلى الشرفة، لم أشأ إنارتَها، آثرت أن أجلس في الظلام الذي خففت منه إضاءة المصباح المثبت في عمود فضي برصيف الطريق الذي تطل عليه الفيلا، وهي الإضاءة التي بعثت في نفسي اطمئنانًا ساعد على إطراقة عميقة، فكرت خلالها في تفاصيل الحفل والاحتفاء، وما صاحبهما من مشاعر وأفكار وتوقعات ومشاهد أبرزها مشهد فريدة وهي تتولاني بعينيها السوداوين الواسعتين، تمداني بفيض من حنان كم افتقدته في سنوات غربتي الطويلة..

فتحت عيني على وجه فريدة.. رأيتها رغم الظلام تقف قريبة مني.. نهضت وتصافحنا. اتجهت إلى مقدمة الشرفة فتبعتها. تجاورنا أشارت إلى القصر المتلألئ بالأنوار في نهاية الطريق الصاعد إليه وقالت:

- أراك دائمًا وأنت تجلس في هذا المكان؛ حجرتي مطلة على الشرفة.

همست لها وأنا أنعم بمشاعر لذيذة:

- أحتاجك إلى جواري طول الوقت .
- لن أتخلى عنك أبدًا.
- كنت أجمل وجه وسط النساء.
- وكنت أنضج رجل وسط الرجال.

صمتت برهة، وقالت:

- لكن احذر. راغب يراقبك.. يراقبني. يخطط ويدبر لإزاحتك.

فقلت أطمئنها :

- زرته في مكتبه.. أحببت أن أتعاون معه.. وجمعنا شبه اتفاق على البحث عن "البترول"..
- لا تأمن له.. لا تأمن لأحد. خذ حذرك دائمًا.
- والاتفاق؟!

- تحرر منه. وابتعد عنه.

وجلجل صوتها في أذني كمكبر الصوت، ففتحت عيني في الظلام المخفف بمصباح الشارع، فرأيتني وحيدًا لم أغادر المقعد، ولم يكن في الشرفة سواي. قلت لنفسي: الهواجس كثيرة، والخواطر دائمة، وليس لديّ دليل واحد حتى الآن على حدوث غدر أو خيانة، ولم أشعر بأي ندم على موافقاتي التي وزعتها هنا أو هناك على مشروعات أراها مفيدة وتتوافق مع "المصلحة العليا" للدولة؛ فواجب على من عاد إلى الوطن بعد غيبة طويلة أن يساعد على قيامه من وَهْدته وكبوته..

في كندا وغيرها من الدول التي زرتها كانت مراعاة "المصلحة العليا" واجب مقدس لا يجب التخلِّي عنه، والتهاون فيه. كم شاركت خلال سنوات الغربة في دعم "المصلحة العليا" عن طريق "تبرعات مالية" غير قليلة. وهاأنا قد عدت الآن، ولن أبخل بشيء، وأصدّق الجميع، وأبادر بالموافقة على

تكوين تجمعات اقتصادية ومشروعات قابلة للتنفيذ، وسوف أخوض "منافسات" شريفة لا تؤذي أحدًا، ولست أظن أن أحدًا يمكن أن يضرني ويؤذيني ما دام يؤمن بالمنافسة الشريفة؛ فباب المنافسة واسع يسمح للجميع بالمرور، والمهم أن تكون شريفة. فكيف أصدق أن عاقلاً يريد الإضرار بي أو يدبر لي بليل؟..

لم أعد إلى الوطن لخوض حرب ضد فرد أو جماعة. ولا أسمح لنفسي بأن "أتكتل" ضد أحد، ولا أنتمي إلى أي حزب من الأحزاب. انتمائي الأساسي موجه للوطن جميعه، فهو جميع الأحزاب الوطنية، وهو "التكتل" المنشود المنوط به التضحية بالنفس والمال.. فكيف أتقبل فكرة أن يعمد أي إنسان في وطني إلى إيذائي أو الإضرار بي؟.. ومن هنا يجيء "استغرابي" وتعجبي من خوف فريدة وتحذيرها لي في أحلام يقظتي ومنامي.. تحرص دائمًا في زياراتها المفاجئة على تحذيري..

حقًا إنها تقول وتقول.. لكن "خيالي" هو الذي يكوّن صورتها ويصنعها ويجعلها تحضر إليّ كلما خلوْتُ إلى نفسي، وكلما خطوت خطوة نحو تنفيذ مشروع هنا أو هناك، وهل يَصْدُق الخيال دائمًا؟! حقًا إن فريدة لا تحضر إلا مع كثرة هواجسي، ووفرة خواطري. فهل هذا دليل على هشاشة الاطمئنان في قلبي؟ ومرة أخرى أطرق وأنا مغمض العينين؛ أفكر في تفاصيل اليوم والأمس..

(١١)

فجأة شقت الفضاء المواجه صرخةٌ مدوية نزعتني من إطراقتي وغفوتي. تبعت الصرخةَ صرخةٌ ثانية أشد من الأولى. نهضت واندفعت إلى حافة الشرفة. ثبّت عيني على مصدر الصوت.. صدر من نافذة غرفة فريدة.. كانت مضاءة. شقت الفضاء صرخة ثالثة.. مضت لحظات لم أسمع غيرها. وجف قلبي ودق بعنف. أسمع الدق بوضوح. مسّني خوف أمام الصمت؛ لم يخطر بذهني سوى فريدة. داخلني يقين من

أن الصرخات الثلاث لفريدة. وجدتني أتساءل: ماذا حلّ بفريدة؟ هل تعرّضت وتتعرض الآن للإيذاء؟ هل أقف مكتوف اليدين عاجزًا عن التصرف؟! كيف يمكن أن أقدّم يد المساعدة لك يا فريدة؟.. هل يليق بي أن أهرع إلى القصر لأستجلي الأمر، وأستوضح سبب الصرخات الثلاث؟.. نعم عليّ أن أذهب وليكن ما يكون..

حين هممت بالنزول إلى الطابق الأرضي سمعت بداخلي صوتًا وقورًا ينصح بضبط حركتي والسيطرة على ردّ فعلي إزاء هذا الصراخ المتكرر. فتساءلت: كيف يمكنني إجابة هذا الصوت بينما يحدثني قلبي أن الصراخ لفريدة؟!.. زاد إصرار الصوت الوقور الرادع،وأوحى لي بأن "المشكلة" ستزداد تعقيدًا لو أقدمت على الذهاب إلى القصر:

- دعها تتصرف بنفسها.
- كيف؟!
- هي أدرى بحالها منك.

- وهل أظل هكذا بلا حركة؟.

- هي أدرى بحالها منك.

حيـــن حاولت الاحتجاج واصـــل الصـــوت بمزيد من الإصرار والعنف:

- وتدخلك الآن غير مقبول ولا مرغوب.

صمتُ وأنا مملوء بمشاعر الأسف والعجز والقهر.. فتذكرت صراخ المرأة الشابة المخطوفة تستغيث بالمشاهدين وتستنجد. مرقت بها سيارة الشبان الخاطفين تحت السمع والبصر. عكس صراخ المرأة المخطوفة فزعًا مزق نياط قلبي. عجزت عن اللحاق بالسيارة التي انماعت وسط السيارات، فكانت كقطرة في محيط. لم يتوصل أحد إلى الجناة بعد! عدم استدعاء الشرطة لي حتى الآن دليل عجزها عن التوصل إلى الجناة! كيف يمكنني تقبل أحاسيس العجز على هذا النحو المزري؟!..

عدت إلى التفكير مرة أخرى في فريدة البدري. فلم أعد أسمع أي صوت ولا حركة، بينما الضوء ما زال في الغرفة المواجهة، ولكن سرعان ما سمعت صوت سيارة تشق سكون الليل، فأدرت بصري نحو الطريق الهابط أمام القصر. تابعت السيارة وهي تهبط بسرعة. لم يكن أمام عجلة القيادة سوى فريدة. رأيتها بوضوح حين عبرت بالفيلا، مبطئة السيارة قليلاً تحت أنوار المصباح الباهرة. تأكدت. ثم رأيتها تندفع كصاروخ، لم أدرِ إلى أين تتجه. فقررت مغادرة الشرفة والمسكن دون تحفُّظ ولا رويّة. في دقيقة كنت في سيارتي. أسرعت لألحق بها، رأيتها تتجه إلى "كارفور".. كانت الساعة تقترب من الواحدة. أوقفت السيارة، وهبطت لتمضي نحو "مقهى كبير" جلست خلف إحدى موائدها. غادرت سيارتي ومشيت إلى المقهى الذي شغل عددًا من موائده رجالٌ ونساء. اقتربت من مائدتها وحييتها، وجلست أمامها..

تحت الضوء الساقط على وجهها أبصرت كدمة زرقاء على الخد الأيمن تعلوها زرقة تحت العين. قلت لنفسي: هاهي حقيقة وليست خيالاً. هاأنت تراها اليوم مرتين بغير وَهْم ولا تمنٍ، ويمكنك الآن أن تكتشف وتعرف المزيد دون حاجة إلى "واسطة"، ويمكنها في المقابل أن تستمع إليك وأنت تبوح بما يتردد بداخلك من هواجس وخواطر..

قطع همسي الداخلي صوتها المبحوح:

- صفعني. صفعني. صفعني.

سألت بما يشبه الصياح:

- لماذا؟

فروت أنها اصطدمت به عقب مغادرة آخر المدعوين، وبعد وداعه لصديقه زاهد العابد:

- اطلعت بالصدفة على أوراق مرسلة إليه من زاهد العابد. وأوراق جاهزة يرد فيها على ما ورد فيها من معلومات. ويقترح أفكارًا وخططًا إضافية.

سكتت برهة، ثم أخرجت من حقيبتها مظروفًا كبيرًا مكتظًا بالأوراق، وقدمته إليّ طالبة مني أن أقرأها بتروّ وإمعان. ثم قالت:

- حين خلا القصر وتوارى الخدم والمساعدون صعدنا إلى الطابق الثاني، وواجهته قبل أن ينفرد في مكتبه بما لم يتوقعه. فقد أبديت أسفي على ما وصل إلى سمعي من كلام غير بريء أكثر من مرة عن مختار الصالح، وما وصل إلي من أوراق تختص كلها بمختار الصالح. أبدى دهشته الشديدة، وتغيّر لون وجهه من الحمرة إلى السواد. وقبل أن ينطق قلت بثقة وتصميم:

- لن أسمح بأن يضر أحد مختار الصالح مهما كان مركزه وعلا شأنه؛ فلا يمكن لعاقل أن يوافق على "تدمير" إنسان شريف. كيف يقبل الشرفاء تدمير إنسان بإيمانه وإخلاصه؟!

ثار في وجهي وقال كلامًا خطيرًا ليس في صالحك ولا صالحي، فواجهته بعنف أشد.. وثورة أعنف. فقال يتهمني:

- الآن عرفت، وتأكدت أنك عاشقة له.

فرددت على الفور:

- بل مؤمنة به. وواثقة فيه.

- بل أنت خائنة.

- صفني بما تشاء.. لكن لعلمك لن أتخلى عن مختار الصالح.

مرّت بنا لحظة صمت.. قال بعدها بلهجة أخف:

- لماذا تتعصبين له هكذا؟!.

- كفى ما تعرض له من شقاء في بلاد الغربة.

- هل تقفين معه ضدي؟!

- أنا أقف إلى جانب الحق كما تعلم عني. ولن أسمح بالظلم.

فعاد إلى انفعاله وثورته، وقال بغضب وتهديد:

- يمكنني أن أصفّيه في لحظة .

- لن أسكت لو فعلت.

- ويمكن أيضًا أن أصفّيك أنت في غمضة عين.

- هراء .. هذا محال.

- ولم؟.

- أنت تعلم أكثر من أي إنسان آخر أنك لا تستطيع ..

فصرخ في وجهي:

- أنت أكبر خائنة.

وعقب بتوجيه صفعة على خدي الأيمن.. وهو يصرخ في وجهي:

- أنت أكبر خائنة

بينما انهالت كفه الغليظة بصفعة ثانية على خدي الأيمن؛ فصرخت، وصفعة ثالثة على خدي الأيسر فصرخت. فدفعته وأنا أصيح في وجهه وخرجت.. سكتت برهة وقالت:

- آثرت الانفـــراد بنفسي... ولكني توقعت أنـــك ستسمع وتلحق بي.

- كيف توقعت أني سأتبعك؟!

- رأيتك وأنت جالس في الظلام وحدك.

- هل ستعودين إليه بعدما حدث؟

- لا يمكنني إلا العودة في انتظار معجزة تخلصني منه.

توقفت لدقائق، ثم استأنفت قائلة:

- انتظرت بعد ترمّلي للمرة الثانية عامين بلا زواج، ثم رضخت بمعسول كلامه وبريق وعوده.. تزوجت من "راغب الدهشوري".. ولم يمر شهر إلا واكتشفت أنني

خدعت، رأيتني أعيش مع كذاب عريق في الكذب، ومجرم ضليع في الإجرام .

- ومع ذلك لم تفارقيه.. لم تطلبي الطلاق.
- نصح بعض العقلاء بالانتظار والصبر؛ فربما تخلى عن كذبه ونفذ وعوده.
- هل قبولك به جاء عن إيمان بقدرات لم يشعر بها غيرك؟!
- تصورت أنه سيكون مختلفًا عن زوجيَّ السابقين؛ فرضيت به.

فقلت بما يشبه اللوم:

- أنت المسئولة عن اختيارك.
- يعلم الناس جميعًا ذلك.. في كل مرة كنت أصاب بخيبة أمل بعد فترة وجيزة؛ فأحزن، وفي كل مرة كان العقلاء ينصحون بالصبر فأصبر..

مددت يدي حين رأيت دمعتين تسيلان ببطء تحت الضوء الخافت. مدت يدها. استبقيت كفها الصغيرة في كفي بعض الوقت. نظرت في عينيها، فرأيت أمواجًا من الحزن لا يتخللها بريق فرح أو أمل..

رأيت "الانكسار" هائلاً مثل جبل ينهار بقوة تدمير جبارة. حينئذ أدركت أنني داخل "عش دبابير" لا يحصى عددها. فتذكرت زاهد العابد، والرجال الأربعة الذين انسحبوا في صمت مثير.. أراه الآن مريبًا ويدعو إلى التساؤل. تذكرت مقابلتي مع راغب الدهشوري في مكتبه ومنزله. فتساءلت عن مصير "المقترحات التي قدمتها". هممت بسؤالها لمعرفة رأيها في زاهد العابد، ولكنها كانت أسرع في الكلام. قالت:

– حذرتك من زاهد العابد..

– صدر التحذير عن خيال وطيف.

– حذرتك وبدا أنك لا تصدق. وأنا أحذرك الآن، وسأظل أحذرك.

سحبت يدها بلطف، وقالت بنغمة هادئة:

- سأعود إلى المنزل الآن.. لا بد من العودة إلى المنزل.
- لماذا العودة؟
- أخشى عليكَ من بطشه.

قبل أن ننهض للمغادرة رأيت شابا يحمل كاميرا تصوير فيديو صغيرة.. يجلس خلف مائدة قريبة. وضح لي أنه يسجل بالصورة والصوت.. عندما رآني أنظر ناحيته بإمعان أسرع بمغادرة المائدة ليخرج من باب جانبي، فأسرعت خلفه. كدت أصل إليه لولا ذراع طويلة غليظة لرجل ضخم الجسم طويل القامة حالت بيني وبينه.. للحظات كانت كافية ليهرب المصور بسيارته.. حين عدت إلى فريدة قالت واهنة:

- أرأيت؟.. قلت لك احذره، إنه يراقبك، يراقبنا طول الوقت..

كورت أصابع كفي اليمنى، وقلت بتحد:

- أراني سأدخل في حرب معه.

فسارعت إلى القول:

- لن تقدر عليه بسهولة.. رجاله كثيرون وخطرون.

فبادرت قائلاً:

- لا يمكن أن يظل الحال هكذا إلى الأبد.

- لن أمنعك من المحاولة. لكن خذ حذرك دائمًا. ولا تطلع أحدًا على ما تفكر فيه.

مضى كل منا إلى سيارته منفردًا .. تابعتها حتى أخذت الطريق الرئيسي، ثم قدت سيارتي خلفها.. تابعتها من بعيد، حتى انعطفت سيارتها إلى الطريق المؤدي إلى رويال سيتي.. ولم أتبعها حتى لا يظن أحد أننا كنا معًا..

قلت لنفسي عندما توارت عن بصري: هل أنا قادر على المواجهة؟! ومرة أخرى كوّرت أصابعي اليمنى في

قبضة رفعتها مرات داخل السيارة. وفجأة سطعت بذهني المرأة الشابة المخطوفة تستصرخ المراقبين وتستصرخني، كما سطع بذهني الشبان الأربعة وهم يهربون إلى شارع جانبي أخفاهم عن بصري.. ثم رأيتني وحدي في السيارة، وفي الطريق الذي أفضى بي إلى "ميدان الرماية"..

انعطفت يمينًا لأحازي فندق "مينا هاوس"، تجاوزته وصعدت في طريق الأهرام. قصدت الهرم الأكبر. أوقفت سيارتي لائذًا بالظلمة والغموض والخلاء الذي لا يضم سواي. احتنقت وقلت في نفسي: كل هذه الأحداث تقع في يومين فقط. فكيف بالأيام المقبلة؟! وصعّدت بصري من قاعدة الهرم إلى قمته. فتذكرت الشركة التي أنشأتها في (أوتاوا) .. شركة "خوفو للاستشارات البترولية والاقتصادية"، ففكرت في الرحيل والعودة إلى كندا.. لكن سرعان ما عدلت عن تفكيري عندما تحسست المظروف الذي سلمته لي فريدة. شعرت بحاجة إلى قراءة الأوراق قبل اتخاذ أي قرار؛ لذلك استدرت مغادرًا

هضبة الأهرام. هبطت إلى الطريق الرئيسي الذي يوصلني إلى مسكني برويال سيتي وأنا مملوء بالفضول لمعرفة ما تضمه الأوراق..

(١٢)

فور وصولي إلى مسكني صعدت إلى الطابق الثاني. احتوتني في الظلام الشرفة المطلة على القصر الحصين. اطمأننت قليلاً لما رأيت غرفتها ينبعث منها الضوء. رغم أني لم أكن متأكدًا من وجودها في الغرفة المضيئة– فثمة اطمئنان شمل قلبي؛ الوقت الآن غير مناسب لتجهر فريدة بالانفصال عن راغب الدهشوري. ودفعني الاطمئنان المحتمل إلى مكتبي، فأضأته وجلست خلف المكتب البيضاوي..

فتحت المظروف فوجدت بداخله أربعة مظاريف أصغر منه: الأول باسم "زاهد العابد"، والثاني موجه إلى "راغب الدهشوري"، والثالث: مثبت فوقه اسمَا "راغب وفريدة"، والرابع يتوسطه اسما "فريدة وراغب"..

فضضت المظروف الأول عن تقرير كتبه زاهد العابد. قال فيه: "أعمالنا تقضي بإزاحة مختار الصالح؛ لسنا مستعدين لظهوره بيننا. فهو منافس خطير. يحمل الجنسية الكندية، وله معاملات ضخمة مع الشركات الأمريكية الكبرى، وثمة معلومات أنه يحمل الجنسية الأمريكية أيضًا.. لابد من حل إذن يرضى جميع الأطراف؛ يكمن الحل في إغراقه في المشاكل الإدارية واستدراج أمواله في مشروعات وهمية. وأنا أنتظر تعليماتك الأخرى يا راغب بك.. حتى الآن توصلت إلى أول إجراء معه وهو "استمالته وكسب ثقته". يبدو أنه واثق في مظهري "المتدين"؛ الآية القرآنية خلف مقعدي مطرزة بخيوط من ذهب تتوسط سجادة فاخرة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. ولحيتي الطويلة بطبيعة الحال توحي بمزيد من الثقة. ومسبحتي حباتها تسع وتسعون. وثمة سجادة مفروشة دائمًا في ركن تجاه القبلة بغرفتي الواسعة. ولا أنسى المصحف الشريف المفتوح على سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ الْفَلَقِ {١} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ {٢} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ {٣} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ {٤} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾... وأحرص دائمًا على إطلاق بخور يعطر الغرفة قبل حضور أي عميل أو زائر. ويعمل التكييف البارد طوال الوقت لينعش النفس؛ فيسري في الأوصال الخدر..

أحضرت معي اليوم أربعة ممثلين محترفين، قدمتهم إليه بوصفهم رجال أعمال بارزين، يملكون شركات حيوية. حفّظتهم الكلام الذي يقولونه أمامه.. وتم التخطيط كما اتفقنا تمامًا: فكل واحد حرر شيكًا باسم "زاهد العابد"، فقد استقر الأربعة على أن أتولّى مجلس إدارة الشركة التي اتفقنا على أن يكون اسمها:"العالمية للإنشاء والتعمير".. وإن كان مختار الصالح قد أرجأ كتابة الشيك لحين إشهار الشركة وفي حضور الخبراء. وأخبرك أن أمواله رغم تحوّطه وحذره - سوف نعمل على إدخالها في شبكة معقدة من الإجراءات التي تجعله خاضعًا باستمرار لإرادتنا. ثق بي فأنا تلميذك المخلص. وقد

انتهت الجلسة بقولي المأثور الذي تعرفه عني: "ليمض كل شيء على بركة الله". أستخدم دائمًا هذه العبارة بطريقة سريعة عقب كل اتفاق يخص العمل.والعملاء يصدقون وأنا ألقي بالدعاء بصوتي الوقور.. وقد أعطيت الممثلين الأربعة مكافأتهم نظير إتقان أدوارهم المرسومة أمام مختار الصالح الذي سيدخل في دائرة "مشاكل" سوف تعجّل بانسحابه أو برحيله وعودته من حيث جاء. وأنتظر تعليماتك.

"زاهد العابد"

توقفت طويلاً أمام هذه الورقة، وأنا مصاب بحزن هائل اجتاح قلبي. بل شعرت به ينسحق بضغط الحسرة، وخيبة الأمل، وخسـران الرجاء. وتساءلت وأنا أعيـد بصري إلى السطور المثيرة: كيف لم أفكر في إمكان أن تكون مظاهر الغرفة المعطرة مجرد مظاهر خادعة يستتر خلفها كذاب مخادع؟. وكيف لم أدرك أن الرجال الأربعة ليسوا سوى

ممثلين محترفين أتقنوا أدوارهم بمهارة؛ فصدقت كل ما قالوه عن المشكلات الاقتصادية في الوطن؟.. صدقت أنهم نخبة من رجال الأعمال الصالحين!. بدوت لنفسي الآن ساذجًا بالغ السذاجة، وغافلاً شديد الغفلة. ولكني لم أسلّم فأكتفي بمشاعر الحزن وخيبة الأمل؛ لا بد لي من إجراء يهدف إلى مجابهة هذا الخداع بتصرّف واعٍ مستنير بآراء المخلصين..

نحيت الورقة ووضعتها فوق المظروف، ثم فضضتُ المظروف التالي، وهو مكتوب في وسطه اسم "راغب الدهشوري". نشرت الورقة وجعلت أقرأ سطورها التي لا تقل خطورة عن سطور الورقة السابقة إن لم تفقها في الخطر والخطورة؛ فقد قال:

"يجب إبعاد هذا العائد بأية طريقة وبأي ثمن، حتى ولو أدي الأمر إلى تصفيته. كيف نرضى أن ينافسنا هذا العائد ويزاحمنا بأفكاره؟! عرفت عنه أنه ناجح تمامًا في عمله،

ويملك عقلية اقتصادية جبارة أشادت بها دراسات بمجلات اقتصادية، وآراء بثتها القنوات المحلية والعالمية. والملايين التي في حوزته وفي حساباته بالبنوك المصرية والكندية دليل على خطورة نشاطه لو تمكن من الحركة بسهولة. لا بد من إعاقته مهما كان الثمن..

إنه اقتصادي بارز في كندا، عاد لينادي بإصلاح شامل لنظامنا المالي. وسوف تدعمه الدولة وجهات أمريكية وأوروبية. إنه "الأمل" في إنقاذ الاقتصاد الوطني. إن الشركات الأجنبية سوف تقصر تعاملها معه لثقتها فيه. ولذلك يجب على زاهد العابد أن يلجأ إلى حسن التدبير. التدبير المحكم لإزاحته، أو إرهابه. كيف نقبل أن يزاحمنا مثل هذا الرجل؟! إنه يملك ضميرًا من نوع نادر. أعلم أنه صريح وشريف وأمين. ومعنى هذا أنه لن يتراجع عن إظهار "العيوب" و"المفاسد" التي نشترك جميعًا في إخفائها، والتي درجنا على التغاضي عنها والتغطية عليها. وبرعنا في التستر على الفساد والمفسدين..

أعهد إلى "زاهد العابد" للعمل على إبعاده وإرجاعه من حيث أتى. وأنت يا زاهد مخوّل بعلاج هذه المسألة، وسوف أقوم كالعادة بحمايتك. وإذا كانت بهيرة الصالح تربطنا بها صلات فإن العمل عمل.. وسوف تتفهم حين نشرع في التنفيذ. أنا متأكد أنها سوف تلين خوفًا على أبنائها الثلاثة. لم تعد لديها قوة لتواجه أحدًا بعد مصرع زوجها، وإذا لم تلن فإن ثمة وسيلة ضغط لإقناعها، وإذا لم تمتثل فيمكن إسكاتها إلى الأبد لتلحق بزوجها الراحل. أعلم أن بهيرة عنيدة ومتصلة بقوى مناوئة. ولكن يدي أطول مما تظن بهيرة وغيرها"..

أمسكت بالورقة أعيد قراءتها وأنا غير مصدّق لعيني. تذكرت أن الصحف الكندية كانت قد نشرت أخبارًا تخصني، وتقارير عن قرب عودتي إلى مصر، واعتزامي استثمار بعض أموالي في تطوير مشروعات قديمة وتمويل مشروعات جديدة؛ للارتقاء بالاقتصاد الوطني الذي يعاني من التعثر

والاضطراب منذ سنوات غير قليلة.. ورغم مقالات الأسف التي تناولت خسارة مغادرتي كندا - فإن أصحابها وغيرهم كثيرون تمنوا لي التوفيق في مهمتي القومية..

لم أكن أدري أن هذه الأخبار ستصيب أحدًا بالفزع، كما لم أكن أدري أن المقابلة التليفزيونية الشهيرة التي أجرتها معي المذيعة الجميلة "جين سبنسر" لقناة الـــC.N.N الأمريكية حول أفكاري الاقتصادية، وتوقعاتي المستقبلية في الوطن بعد عودتي إليه- لم أكن أدري أن هذه المقابلة وتلك الأخبار قد أثارت حفيظة راغب الدهشوري ورفاقه؛ فأجمعوا أمرهم على الإعداد والتدبير والتآمر..

قلت لنفسي وأنا أعاود النظر في الورقتين: الحياة متسعة، والأرض رحبة، والمساحات هائلة، والوطن قادر على أن يستوعب آلاف المشاريع الكبرى والصغرى التي يمكن أن

تكون مفيدة لو خلصت النوايا، وصدقت المشاعر، وترجمت الأقوال إلى أفعال..

والواقع أن الورقتين فجرتا بنفسي شوقًا عاتيًا إلى "لحظة" تأمل؛ لأعيد النظر في عودتي التي لم تستغرق سوى يومين حتى الآن. وربما تساءلت: هل يمكن التراجع والعودة إلى (أوتاوا)؟ وربما سألت نفسي: هل يمثل تراجعك وإخلاء الساحة على هذا النحو ضعفًا وطنيًا، ووهنًا قوميًا؟! ألا يعد رحيلك الآن هروبًا ينسف أحلامك التي راودتك طوال ثلاثين عامًا؟! ماذا يكون موقفك حينئذ أمام فريدة؟! أمدتك فريدة بمعلومات لتعيد حساباتك مع نفسك والآخرين، لا لتهرب وتغادر الميدان بدون أية مواجهة!..

ونصحني صوت بداخلي أن أبقى لأواجه دون يأس أو تخاذل.. فسرعان ما تصيبهم صلابتك برجفة رعب لا يمكن تحملها طويلاً. وعليك أن تحسن المناورة؛ فلا تصارح أحدًا

بأفكارك.. لا تفكر بعد الآن في الرحيل. وهاهي فريدة البدري تبرز وسط الظلام المقابل وتحفزك على البقاء. وهاهي تقول لك: لا تفكر في الرحيل؛ لن يستطيع أحد أن يمسك بسوء..

مددت يدي إلى المظروف الثالث، يتوسطه اسما "راغب وفريدة". الخط غير مستقيم يدل على أن اليد التي كتبته كانت مرتعشة مهزوزة. فضضت المظروف الذي احتوى على ورقة واحدة، مصوّرة عن أصل، لكنها واضحة وصريحة. خط السطور الأولى متعثر قليلاً.. لكن السطور الباقية مستقيمة. هل زايلت الرعشة أصابع الكاتب الهمام؟..

طالعت السطور فوجدتها لا تقل خطورة وخطرًا عما ورد في الورقتين اللتين قرأتهما منذ قليل: ورقة زاهد العابد، وورقة راغب الدهشوري. قال راغب في هذه الورقة الثالثة:

"أعلم أنها تحبه. قبل أن أتزوجها وأنا أعلم أنها تحب مختار الصالح. كانت أجمل فتاة في عابدين. بل أجمل فتاة في

القاهرة.. بل في مصر. هكذا رأيتها في الماضي، وأراها الآن، وفي المستقبل. تأكّدت من حبها لمختار الصالح قبل أن يهاجر إلى كندا. في "عابدين" لن يمكن إخفاء الأسرار. حقًا لم تكن بينهما لقاءات لكن زميلاتها كن يثرثرن بحب فريدة البدري لشقيق بهيرة الصالح. وأنها انعزلت فترة طويلة عقب هجرته تعاني من الحزن والقهر والأسف. وأن مختار سافر وهو يجهل عمق هذا الحب الذي كم فجّر في نفسي مشاعر الحقد والكراهية.. وقررت لراغب الدهشوري المزيد من العمل أيًا كان نوعه. كما قررت ادّخار رغبتي للحظة المناسبة. صنعت المستحيل لأحصل عليها.. حتى عندما تزوجت مرتين لم يفقد جمالها بريقه. زوجها الأول استولى على جزء كبير من مالها، وهرب إلى خارج البلاد ليموت في بورما في ظروف غامضة. أما زوجها الثاني فقد تم طعنه في ظهره وهو جالس في مكتبه ليلاً، بينما لم يعثر حتى الآن على القاتل..

بعد عام من الحداد تقدمتُ إليها، فوافقتْ بشروط قبلتها جميعًا. تزوج راغب الدهشوري من فريدة البدري، شارك في حفل الزواج جموع غفيرة. ولِمَ لا؟ فراغب الدهشوري ذائع الصيت. تملأ الإعلانات الشوارع. لشركاتي فروع في كل حي، وفي كل مدينة.. صورتي على سيارات النقل الجماعي. ويراها مشاهدو التليفزيون وقرّاء الصحف صباح مساء. لا يكاد يمر يوم إلا وتنشر الصحف أخبارًا عن حِلّي وترحالي، ودوري في نمو الحركة العمرانية. ودائمًا أخباري مزودة بصوري الملونة الواضحة والصريحة. يتحدث الناس جميعًا عن وسامتي وشدة أناقتي..

لم تعرف فريدة البدري عني شيئًا سوى هذه الشهرة الكاسحة. التي أثارت إعجاب القريب والبعيد، فوافقت على طلبي دون تردد. وفي مقابل استجابتها الفورية أعددت لها زفافًا أسطوريًا في قاعة "الأمراء" بـــ"مينا هاوس". كم حلمت به الفتيات والنساء، وشغلنا مسكنًا هو قصر آمن في رويال

سيتي. شارك في بنائه وتصميم ديكوراته وتأسيسه خبراء مصريون وعالميون. وبعد أسبوع من الزفاف استغرقني العمل، ولكني كنت دائم اللهفة عليها، وتفننت في إحاطتها بمظاهر الثراء والفخامة التي تليق بأجمل امرأة شغفت بها منذ وقع بصري عليها وهي طالبة بالجامعة.. ورغم إقبالي الشديد عليها، واهتـــمامي بها - لاحظت الشرود يتملك عينيها بعد أيام قليلة من الزفاف، ورأيتها تميل إلى الصمت. وربما استقلت السيارة بسائق أو بدون سائق لأغراض منزلية، والقيام بزيارات هنا أو هناك، لكنها سرعان ما تعود. تؤدي ما عليها من واجبات منزلية وزوجية، لكن بوهن نفسي وروح ضعيفة. فاتخذت علاقتنا شيئًا فشيئًا صفة البرود.. وكثيرًا ما لمحتها تبتسم لمجهول وتناجيه، فأدرك أن المجهول معلوم: إنه مختار الصالح الغائب عن الوطن منذ سنوات طويلة..

ذات يـــوم واجهتها بقلقي وتوقعي، فصـــارحتني بأنها تشعر بالأسف لرحيله وغيابه عن الوطن، مثلما تشعر بالأسف

لغياب الآخرين. وذات مرة فاجأتها بأنها تحب مختار الصالح، فلم تنكر، وقالت: إنها لا تكره أحدًا على الإطلاق..

هاهو مختار الصالح قد عاد إلى الوطن، ولا بد من إقصائه عن حياتي الزوجية، وإزاحته من طريق حياتي العملية. إنه خطر مؤكد على جميع الرفاق والمشروعات الجارية والمستقبلية؛ قالوا عنه: إنه يعتزم ضرب الفساد، خاصة أن هناك من سوف يكون مستعدًا لمساعدته، وإعانته في مهمته..

كيف يمكن أن نقبل من يتدخل في مسيرتنا المعهودة بدعوى الإصلاح الاقتصادي؟! هل نحن فاسدون؟؟ لا أقبل أن يتهمني أحد بالفساد، كما لا أقبل أن يظهر هذا المختار الصالح أمام زوجتي بصورة البطل المنقذ. أعلم أنها سوف تسانده. وقد تأكدت اليوم من رغبتها في مساندته حينما كان اسمه محور حديثنا؛ قالت فريدة بحماس:

- أثق في إمكانات مختار الصالح مثلما يثق الكثيرون.
وأنا مؤمنة به، وبقدراته من زمن بعيد.

ولم تتوقف عن ترديد هذا القول عقب انصراف الجميع بعد حفل العشاء. لاحظتها - أثناءه- يتبادلان نظرات حافلة بالمعاني.. لابد من إقصاء مختار الصالح وإزاحته.. "..

أحسست برعب وأنا أقرأ سطور هذه الورقة. ودهشت لأن "راغب الدهشوري" لديه هذا القدر من المعلومات عني وعنها. جالسته في مكتبه أول أمس وبي يقين من أنه يراني للمرة الأولى. وعندما دققت فيه النظر وجدت وجهه مألوفًا لي. هل هو من سكان حي عابدين؟ هل كان يقطن بشارع منه؟ هل زاملني بالمدرسة في مرحلة ما؟ وجهه مألوف لي. ولكن لا أذكر أنني قد جالسته وتحدثت إليه من قبل. وعلى أية حال فقد مِلْتُ إليه وصدقت تمامًا احتفاءه بي، ورغم تحذيرات خيال فريدة، سارعت إلى قبول دعوته لي على العشاء. ومع توافد

المدعوين "على شرفي" ازداد ميلي إليه، فرأيت أن زيارات فريدة التحذيرية مجرد وهْم لا يمكن التعويل عليه، كما لا يمكن الاستجابة لتحذيراتها المتكررة فأقابل إقدام الآخرين عليًّ بشعور متراجع. ولكن الآن يختلف الأمر؛ فقد وضح المستور، وانكشف التدبير، ولاحت المؤامرة. وعليّ أن ألوم نفسي؛ تأكدت تحذيرات فريدة. فكيف فاتني ألا أدرك طبيعة هذه الشخصية إلا اليوم؟ كيف انخدعت إلى الدرجة التي جعلتني أستبعد تحذيرات فريدة؟!..

وهاهو راغب الدهشوري يوضّح مشاعر فريدة البدري تجاهي. قدم لي راغب خدمة جليلة دون أن يدري.. يوقن راغب أن حياتهما معًا خالية من الروح. لم إذن تزوجتْك فريدة؟! بهرتَها بوسامتك وأموالك ووعودك، لكنها سرعان ما تحولت عنك يا راغب..

ورأيتني أفكر في عباراته عن "ردّ فعل" فريدة حين وجّه إليها اتهاماته المباشرة؛ فلم يكن ردّها إلا تعزيز رغبتها

في مساندتي وتأكيد مشاعرها الفياضة بالأمل. ولذلك لن أخذلك يا فريدة مادمت قد وثقت بي إلى الحد الذي جعلك تواجهين "راغب الدهشوري" بأنك واثقة من إمكاناتي ومؤمنة بقدراتي. وهاأنا أمتلئ بسعادة غامرة أنستني إحساس الرعب الذي صاحبني وأنا أقرأ عبارات راغب عن مدى التدبير والتآمر على حياتي. لا يمكن لمثلي أن يتذكر إحساس الرعب وهو مغمور بسعادة حب صافٍ غمرتْني به فريدة..

تأملت لبرهة المظروف الرابع: مدون في وسطه اسمان: "فريدة وراغب". فتحته رأيت ثلاث ورقات بخط فريدة:

"مختار: أبادر فأقول لك لا تخشَ شيئًا ولا أحدًا. تأكد أنني لن أسمح لمخلوق أن يضرّك؛ فأنت بالنسبة لي الأمل الذي كم رجوت أن يتحقق. كنت ألاحظك وأنت في مراحل التعليم المختلفة، ولما حصلت على بكالوريوس الهندسة- زغرد قلبي. رأيتهم يزفون لك التهاني وأنا بصحبة بهيرة

صديقتي الأثيرة التي كانت تشعر بإعجابي بك. لم أصرّح لها في أي وقت بحبي لك، لكنها كانت تشعر بأنني أتمنى الاقتران بك. كنت دائمًا أدرك أنها لم تفاتحك بشيء؛ لأنني لم أطلب منها أن تحدثك عن حبي. فأنت لم تشعر بي في أي وقت حتى ونحن نقدم لك التهاني بالنجاح..

أذكر أنكَ يوم التهنئة قلت: لن أبقى هنا. لا عمل. لا أمل. سأسافر إلى كندا، ولا أدري متى أعود. كنتَ غافلاً عني تمامًا رغم تلاقي عيوننا مرات ومرات. لم أغضب منك. لأنني أومن بأنني لا أرتبط إلا بمن يشعر بي ويفضلني على نساء الدنيا..

بعد رحيلك بعامين تزوجت من رجل أعمال شاب في الثلاثين، كان طموحًا إلى أبعد حدّ. غامَرَ ببعض مالي الذي ورثته عن أبي في مشروع بدا لي أول الأمر ناجحًا. ثم هرب بباقي المال إلى الخارج. وعلمت بعد عامين أنه مات في ظروف غامضة. واقترنت بالثاني بعد عام من وفاة زوجي

الهارب. واستبشرت خيرًا؛ لأنه كثيرًا ما نفذ وعوده، وكان ينال مشاعر الرضا والقبول ممن سمع عنه أو تعامل معه. لكنه للأسف سرعان ما صدرت عنه تصرفات مريبة علمت بها، ثم فوجئت بمصرعه في مكتبه بطعنة نافذة عندما كان وحده في وقت متأخر من الليل. ولم تتوصل الشرطة للقاتل فقيد الحادث بعبارة : "وتم قيد الحادث ضد مجهول"..

تقدم "راغب الدهشوري" بعد عام من ترمّلي. غمرني بمعسول كلامه ووفرة وعوده. وظلّت رسله تتوافد على منزلي لشهور، وأقنعتني بهيرة بقبول عرضه، وشجعني شقيقي المهاجر إلى ألمانيا منذ سنوات طويلة. وقال بعض معارفي المخلصين إن "راغب الدهشوري" صادق في طلبه، وإنه ملياردير جمع ملياراته من تعدُّد أعماله وتنوُّعها. وسوف تنعمين بالذهب والماس، وقضاء الإجازات بين باريس ولندن ومدريد. وسوف تصحبينه في سفره المتعدد إلى دول الشرق والغرب..

تذكرتك بقوة؛ فأدركت أنـــك غائب وبعيـــد جـــدًا منذ سنوات طويلة، لم تحضر خلالها إلى الوطن ولا مرة واحدة. غضبت منك وعليك. وكان قد استمالني راغب بهداياه الثمينة فوافقت على عرضه، وتم الزفاف في حفل أسطوري تجاوز كل التوقعات.. فاق حفلات بنات ونساء تزوجن ملوكًا وأمراء ورؤساء.. لكن لم يكد يمرّ سوى عام حتى اكتشفت أنني تزوجت من مجرم عريق في الإجرام..

ذات صباح منذ شهر تقريبًا – وكان في سفر خارج الوطن – اتصلت "إشراق" السكرتيرة السابقة لراغب، التي أمر بإنهاء عملها في مكتبه. طلبت مقابلتي لأمر مهم. حضرت وقدمت لي صورًا له مع نساء، ووثائق بخط يده، وأشرطة بصوته. دلت جميعًا على أنه مجرم عريق في الإجرام..

فثمة أوراق تفيد تآمره على أشخاص للاستيلاء بالقوة على أراضٍ في مناطق سكنية مأهولة في القاهرة والجيزة

والإسكندرية ومرسى مطروح والغردقة والإسماعيلية وشرم الشيخ..

وثمة أوراق أخرى تدل على تجارته في المخدرات وترويجه للبانجو والهروين، تنفذها شبكة مكونة من أشخاص مرموقين يعرف الناس عنهم أنهم مثال الصلاح والبر والتقوى..

وثمة أوراق تؤكد علاقته بتجارة البغاء، وتحدد المساكن والفيلات التي تستقبل العملاء والمترددين من الأثرياء العرب والمصـــريين ورجـــال في الحـــكومة، وتضم الأوراق أسماء فتيات وسيدات مغمورات وأخريات لهن حياة زوجية، يعشن في كنف أشخاص صالحين ومرموقين في مجتمعات القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن..

وثمة أوراق تشير إلى صلاته بأجهزة مخابرات معادية للوطن يمدّها هو ورجاله بأخبار النموّ الاقتصادي، والبناء

العسكري، واستطلاعات خفية للرأي العام تهدف إلى صياغة تقارير عن التحول الاجتماعي والاقتصادي في الوطن..

وثمة أوراق تشير إلى أنه عابث ماجن في أوقات غير قليلة، فلم تسلم من رغباته أية امرأة أو فتاة يريدها. بالقوة أو بالإغراء المادي.. وقالت "إشراق" تفجر في وجهي قنبلة:

- كنت إحدى ضحاياه.. ولما تزوجت من قريب لي تمنعت عليه. فضاق بي وأمر بطردي. لكن بعد أن صوّرت أوراقًا ومستندات وسجلت شرائط تدينه. وهـــاهي الآن في حـــوزتك. فأنا وغيـــري نعلم أنه لا يستحقك، وأنك مظلومة معه..

بعد أن غادرت إشراق القصر أحسست بكراهية شديدة نحوه، ورأيتني مثل ريشة في الهواء تعبث بها رياح عاتية، وبدت المشاهد والمرئيات في القصر محاطة بلون أصفر زاد من إحساسي بكراهيته ومقته.. وتمنيت أن أغادر القصر قبل

أن يحضر من سفره. ولكن دفعني الفضول إلى الاستماع إلى الأشرطة. وسمعت صوته في أول شريط وهو يثني على محدثه الذي أتقن العملية الناجحة:

- لم تترك أثرًا؟!
- العملية نظيفة تمامًا.
- تستحق مضاعفة الثناء.
- بل أستحق الأجر مضاعفًا هذه المرة.
- ماذا تقصد؟
- أريد هذه المرة مائتي ألف جنيه.
- اتفقنا على مـــائة ألف. استلمت خمســـين. ولك عندي خمسون فقط.
- بل لي عندك مائة وخمسون.
- والاتفاق؟!

- الضحية مهم جدًا.. بل هو أكثر الضحايا السابقين أهمية.
- هذه خمسون فقط.
- سآخذها. لكن لنا كلام آخر.
- أنت تهددني.
- لي عندك مائة ألف. وأستأذنك فأنا مسافر الآن إلى الإسكندرية.

ثم سمعت جرس المكتب، وسمعته ينادي مدير مكتبه حازم السواحلي الذي بدا أنه قد هرع إليه في دقائق قليلة؛ فقد قال راغب:

- يجب التخلص فورًا من جعفر البرجاسي.
- أمرك.
- أريد أن يتم الأمر على أنه مجرد حادث مروري. أعلم أنه يأخذ دائمًا الصحراوي.

ومضت لحظات صمت. ثم عاد راغب إلى القول:

– إنه عائد إلى الإسكندرية الآن في الطريق الصحراوي.. تصرّف بسرعة.

توقفت الأصـــوات تمامًا.. ثم سمعت صـــوت حـــازم السواحلي يقول:

– رقم سيارته (٤٣١٦٥) ملاكي إسكندرية.

فقال راغب:

– هل تأكدت أنه هو؟!

– تم المطلوب قبل العامرية. وقد أرسلنا مَن تأكد من مصرعه.

فعقب راغب على الخبر قائلاً:

– الحمد لله".

أصابني الهلع وأنا أستمع إلى هذا التعقيب. "الحمد لله"؛ هاهو اسم الله يذكر في مواطن التآمر والقتل والاغتيال وعمليات النصب والاحتيال. أي إجرام! وأي فساد! وأي رجال أعمال!. كيف غفل رجال المباحث عن راغب وأمثاله؟! يتحركون دون رادع ولا رقيب. هل يمكن السكوت على جرائم أغلبها تصفيات جسدية مآلها في النهاية عبارة مريحة "قيدت الجريمة ضد مجهول"! كم فتح هذا "المجهول" أبواب النجاة للقتلة والفاسدين ليستأنفوا نشاطهم المدمر والدموي. لا يمكن استمرار الرضا بهذا "المجهول" الذي ترتكب باسمه كل الجرائم التي يراد لها أن تتوارى إلى الأبد. فمن ذا الذي يعترض، ويجهر بالحقيقة دون خشية أو تردد؟!

ظل السؤال الأخير يتجاوب في نفسي وأنا مغمضة العينين. كم رغبت أن أفتح عينيّ لأراه أمامي حتى أواجهه بما لديّ. ربما بقيت على حالي ساعة أو ساعتين.. لكن ما

لبثت أن استمعت إلى "شريط آخر". كان الصوت البارز في بدايته لراغب الدهشوري. يحادث شخصًا عبر التليفون:

- وصلت البضاعة؟

- وصلت.

- وزّع كما اتفقنا.. الصنف هذه المرة عالي الجودة.

- ساعد إسرائيليون، وبعض بدو سيناء، وثلاثة من شرطة الحدود، رشوناهم بمبالغ كبيرة جدًا حتى تمر البضاعة بسلام.

واستمعت إلى صوت راغب الدهشوري يستدعي عبر ميكرفون مثبت فوق المكتب مدير مكتبه حازم السواحلي، ثم قال يسأله:

- هل تم التخلص من المسئول عن عبور الكمية كلها؟

- نعم. تم التنفيذ. كانوا ثلاثة. بعد أن عبرت سيارتهم مدخل رفح بكيلو انقلبت بهم؛ نتيجة صدمة قوية من الخلف. وسجل الحادث كالعادة "ضد مجهول".
- والمتسبب في الحادث؟
- تم اغتياله بعد ساعتين على باب مسكنه.وسيقيد الحادث "ضد مجهول".
- الحمد لله.

مرة أخرى يذكر اسم الله مسبوقًا بحمده على جريمة جديدة. وسوف يرتكب راغب وأعوانه جرائم أخرى ما دامت المواجهة غائبة. ولذلك قررت أن أفسد أي تدبير منذ الآن. وجعلت قراري مقرونًا "بسم الله والوطن"، فواجهته حين استمعت عرَضًا إلى كلام مع حازم السواحلي يخصك؛ فقد طلب منه راغب أن يدبّر لتصفيتك في الوقت المناسب. وقد سجلت اللقاء بالصوت والصورة. ولما فاتحته ثار وهدّد،

وانهال عليّ بسباب واتهامات جارحة.. وقد أسرف في الاعتذار وإبداء الأسف. وهاهي الأوراق التي تدينه. وكان يمكن مغادرة القصر، ولكني فضلت البقاء لمراقبة الموقف ومتابعة التطورات المحتملة. ضغطت أعصابي الثائرة وسيطرت عليها. لكي أكون قريبة من الحدث الذي لا أريد أن أكون بعيدة عنه؛ لأوهم راغب أنني صفحت عنه وقبلت اعتذاره. أعلم أنه يحبني، وسوف يصدق أنني عذرته؛ لأنه يتصور أنني لن أهدم زواجنا، ولن أتخلى عن حياتي الزوجية معه، ولا يمكنني التضحية بالحياة في قصره العجيب..

أدرك أنه يرسل خلفي من يراقبني؛ ولذلك أتوقع أن يسجل أي لقاء لنا بالصوت والصورة.. لكن لن أريحه لو سألني عن مدى علاقتي بك. وأنا متأكدة أنه سوف يتغاضى عن النتيجة. المهم أنه حريص على أن أبقى في حوزته، وفي قصره. كل تصرّفاته ووسائله مبرّرة سلفًا ما دمت أمامه وفي

حوزته. قال لي ذات مرة أثناء شجارنا: "يخطئ من يظن أن أطلقك، هل أنا من البلاهة حتى أفلتكِ من يدي؟! تأكدي ويجب أن يتأكد خصومي أنني لن أفرّط فيك؛ فأنت كنز لا يفنى أقصده دائمًا كلما احتجت إليه، رغم أني أعلم أنه سيوصد بابه في وجهي ذات يوم. وقد استعددت لهذا اليوم الذي أرجو أن يتأخر ويتأخر؛ حتى أفرغ من مهمتي. وثقي أنك سوف تكونين بحوزتي طول الوقت"..

أصارحك يا مختار بأنني لمت نفسي ولمتك وأنا أستمع إلى كلامه؛ فأنا في الواقع مسئولة وأنت أيضًا يا مختار عن ظهور راغب الدهشوري ورفاقه.. إنهم في كل شارع وحي ومدينة، يدبّرون ويرهبون ويغتصبون. يوجد يا مختار في كل حي ومدينة مَن يتقنّع بقناع "راغب الدهشوري". لا يمكن أن نتهرب من المسئولية. أنت بهجرتك الطويلة، وأنا بصمتي ورضاي. ومع ذلك يمكن إصلاح ما فسد، واستعادة ما أهملناه، أعلم أن مهمتك ثقيلة، ولكن ثق بأنني لن أتخلى عنك.

سوف تراني في أي وقت ترغبه. بل سوف تراني حتى لو لم تكن مستعدًا لرؤيتي.. يكفيك يا مختار بُعْدك عن الوطن ثلاثين عامًا..

أمضيت سنوات طويلة وأنا أنتظر عودتك. كنت مؤمنة بأنك ستعود ذات يوم. ورغم زيجاتي الثلاث شعرت أنك عائد لتدفع عني ما تعرضتُ له من أذى ليس خافيًا على أحد. ثمة "مقاومة" بداخلي لكنها غير كافية. لابد من شحذها ليمكنني المواجهة. قاومت لأحتفظ بأزواجي الثلاثة، لكنهم خذلوني؛ هرب الأول بأموالي، وتوفي الثاني في حادث غامض عقب سلسلة من التصرفات المريبة. وهاهو الثالث مجرم يستر جرائمه بابتسامة يظنها الناس ساذجة، بينما هي تعكس طبقات من السخرية والمكر والدهاء.. هل حمّلتك فوق طاقتك؟، لا بأس. فهذا قدرك. وعليك أن تحسن التصرف. وسوف أناصرك. في كل مكان سوف تراني إلى جوارك. ولن تُجْدِي أية محاولة لإثنائي عن قرار مساندتك والخلاص من راغب الدهشوري..

فرغت من كلام فريدة. تأملته كما تأملت ما ورد في الأوراق والشرائط. نشطت مشاعري بعنف فبدت لي سياطًا تجلد جسدي العاري تحت حرارة شمس حارقة في عراء الصحراء.. رأيتني مسئولاً عن أمر لم أنتبه إليه منذ ثلاثين عامًا. كنت غافلاً فلم أقدّر خطورته. هجرت الوطن عام ١٩٧٥؛ ظنًا مني أنني أديت دوري نحوه. حقًا تحقق نصر تاريخي بالعبور الكبير في أكتوبر عام ١٩٧٣ شاركت فيه، لكن الوطن كان بحاجة إليك لتضميد الجراح وجبر المكسور. فبدلاً من البقاء اتبعت أقوال حكماء وعقلاء بأن فرصة العمل بالخارج بهجرة دائمة أو مؤقتة كفيلة بتقديم إسهام يعين الوطن في تحوّله وتطوره. وساعدتِ الدولةُ على الرحيل ما دامت "العملة الصعبة" سوف ترد إليها من الأبناء العاملين بالخارج والمهاجرين..

كان قرار الهجرة إلى كندا غلاّبًا، فلم ألتفت إلى تلك الفتاة المحبة زميلة بهيرة. لم ألتفت إلى "فريدة البدري" التي منعتها كبرياؤها من أن تلاحقني وتستبقيني. توالى عليكِ الرجال الثلاثة وأنا مشغول بالسفر والعمل. والدراسات العليا وجمع المال؛ فلم أرَ في عيني سوى كندا. حسنًا هاأنتَ صرتَ مليونيرًا بفضل إخلاصك ودراستك العالية، ولم تذكر الوطن إلا بمبالغ "صعبة" ضئيلة غير كافية. بل أنك لم تزر الوطن ولا مرة منذ رحيلك لدرجة أنك لم تحضر جنازة والديك. اكتفيت بتليفون لبهيرة تواسيها في المحنة.. ماذا أريد من الوطن حينئذ؟!، كيف يستقبلني الوطن بالأحضان والرعاية، وأنا الذي قصرت في حقه وتخليت عنه؟! إن ما يحدث لي وما ألاحظه منذ أيام – ليس إلا ردّ فعل مبدئي للوطن المهجور، وهاأنت مرتعب مما عرفت، وتراودك الرغبة في الهروب والتخلي فهل تفعل؟! ورأيتني أدفع هذا الصوت النشط بداخلي فأقول متحديًا ومصممًا:

– لا. لن أرحل. سوف أبقى لأواجه، ولْيكن ما يكون.

وحدثت نفسي بأنني أخطأت في حق فريدة يومَ لم أشعر بها وهي تستبقيني بنظراتها.. ولكن ليس صحيحًا أنني نسيتُكَ تمامًا يا فريدة..

وردت على ذهني صورتك في أحيان كثيرة. واستفسرتُ عنك عندما كانت بهيرة تزورني في كندا.. وأعترف أن ملامحك مع مرور السنوات قد غطاها ضباب كثيف. وأعترف أيضًا أنني قمت بمغامرات نسائية حرصت على ألا تترك أثرًا. ولم أقترن بأية فتاة.. كنت دائمًا أشعر بأن القدر يدخر لي من تستحق الاقتران. ومن الغريب أنني في أوقات الشدة وأيام المرض- كنت أراني جالسًا بصحبة بهيرة وفريدة. لكن صورة فريدة كانت تبدو لي مغطاة بذلك الضباب الكثيف. وربما نسيت وجهها بمرور السنين. لكن بعض أخبارها كانت تصلني عن طريق بهيرة كلما التقيت بها عندما تزورني مع

زوجها في كندا، أو في باريس، أثناء دراستها وزوجها رشدي العامري في مرحلة دكتوراه الدولة..

عرفت من بهيرة أنها تزوجت بعد رحيلي بعام من رجل أعمال شاب مغامر.. ودهشت عندما علمت بنبأ هروبه بمالها الموروث وبقرض من البنك الوطني قدره ثلاثة ملايين، جعل يتنقل بها بين عواصم الشرق والغرب إلى أن جاء نبأ مقتله في (بورما) على يد مجهول، كما عرفت أنها رفضت مغادرة الوطن للحاق بالزوج الهارب..

حدثتُ نفسي غير مرة أن أطلبها للزواج. رغم أن صورتها قد غشيها الضباب الكثيف – فإنني اهتززتُ بكلمتها عند الوداع منذ ثلاثين عامًا: "تذكَّرنا". معنى عينيها استقر في قلبي عندما ودعتني بهذه الكلمة.. كان الطريق إذن مفتوحًا أمامي.. لكني مرة أخرى اندمجت في سفريات كلفتني بها الشركة إلى مُدن أوربية وآسيوية، فضلاً عن اقتراب مناقشة

الدكتوراه. فآثرت الانتظار لبعض الوقت حتى علمت بنبأ زواجها من مهندس طموح عرفتُ أنها رأت فيه ملاذها، ولم تمضِ معه سوى ثلاث سنوات حتى قُتل في مكتبه بطعنة نافذة على يد مجهول احتارت الشرطة في التوصل إليه، فقُيدتْ الحادثة بعد سنتين "ضد مجهول"..

تقاعست عن التقدم إليها بعد مصرع زوجها الثاني لمعرفتي أنها غير مستعدة – الآن – لخوض أية تجربة زواج جديدة، ولحدوث تطور في عملي بكندا، فقد صدر قرار نقلي من فرع الشركة بمدينة (كاليجارا) إلى العاصمة (أوتاوا)؛ لأتولى منصب مدير التسويق، وكان النقل لتولي هذا المنصب كافيًا لحدوث مزيد من العمل الشاق؛ خاصة أنني وفقت في تكوين شركتي: "خوفو للاستشارات البترولية والاقتصادية". وهذا معناه أن فكرة الزواج على الإطلاق قد تراجعت خطوات كثيرة؛ ولذلك آثرت الانتظار بعض الوقت، فلم أكلف بهيرة

بمفاتحة فريدة..حتى علمت أنها تزوجتْ من راغب الدهشوري الذي لم يكن نشاطه خافيًا على أحد؛ باعتباره واحدًا من كبار رجال الأعمال الذين لهم دور بارز في حركة البناء والتشييد في وطني.. هكذا قالوا عنه، وكتبت بعض الصحف الكندية تنوّه بنشاطه، كمدير للغرفة التجارية المصرية..

وقد أتيح لي أن ألتقي به في حفل عشاء بالعاصمة (أوتاوا) ضمن الوفد البرلماني المصري الذي دعاه البرلمان الكندي... وقد جمعنا حوار فأبديتُ إعجابي بجهوده، وأظهر هو تقديره لرؤيتي الخاصة بضرورة تنويع مصادر الطاقة في مصر. ولكني لم أسترح له وهو يستعرض معي أفكار المشاركة في تطوير الاقتصاد المصري، فلم يكن حريصًا على المصلحة العامة للوطن قدر حرصه على ما سوف يحقق من منافع وما يجني من مكاسب شخصية. فصدق توقعي الذي أحسسته وأنا أصافحه بأن الرجل ليس له عزيز.. ورأيتني

أتذكر فريدة الآن وأرثى لها، وأعنف نفسي، وأجلدها بسياط عتابي ولومي؛ لأنني لم أهرع إليها طالبًا يدها كما قدرت، خذلتك يا فريدة ثلاث مرات. ولكنني لن أخذلك هذه المرة..

(١٤)

هاهي الأوراق تتجمع أمامك معلنة أنك في خطر عظيم، وعليك الرحيل إيثارًا للسلامة، أو البقاء للتحدي والمواجهة. سوف يستمر الجلْد المعذِّب إذا اخترت الرحيل، ولن تسلم من الأذى لو بقيت للمواجهة.. طار النوم من عيني؛ فبقيت يقظًا في فراشي..

استغرقني التفكير في المصير المحتمل حتى الفجر. سمعتُ الآذان فهرعتُ إلى الصلاة.. اندمجت في صلاتي فتراجع الهمّ خطوات، دعوتُ فأحسست باليقين يملأ نفسي. نمت ثلاث ساعات.. استيقظت في الثامنة على رغبة ملحة في رؤية "فريدة"، نهضت من فراشي ومشيت إلى ستارة باب

الشرفة الزجاجي. أزحت الستارة قليلاً ورمقت زجاج غرفة فريدة التي تواجه غرفتي.أشعر أنها تراقبني من خلف زجاج الغرفة الذي لا يُظهِر المُراقب. تذكرت قولها لي ونحن في المقهى أمس:

- اقتحم ذات مرة غرفتي، وعبث بمحتوياتها، واطلع على صورة لك أحتفظ بها مع مقالات لك في الجرائد الأمريكية والكندية استعرتها من بهيرة. يعرف راغب أنني لن أتخلى عنك في مهمتك..

فهل يمكن التراجع والرحيل بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد؟! عليَّ أن أستثمر إحساس اليقين الذي يتملكني وأنا أفكر في خطوات المواجهة. ويبدو أن دعاء الفجر قد استجيب؛ فقد حضرت في الثامنة والنصف شقيقتي بهيرة.. تناولت معي الإفطار وشربنا الشاي في جلسة جمعتنا في صالة الطابق الثاني.. قالت وأنا أنظر في عيونها القلقة:

- علمتُ بكل شيء.

- ممن؟

- من فريدة.. حكت لي منذ قليل في التليفون.

فقلت بهدوء:

- كنت طول الوقت على علم بما يجري.

- أنا وفريدة وأنتَ في قارب واحد.

- كيف؟

- راغب الدهشوري خلف مصرع زوجي رشدي.

- متأكدة؟

- إشراق سكرتيرته دلّتني على قاتله المحترف.. كدنا نصل إليه لولا أنه مات مسمومًا عقب تناول عشائه في منزله. ولم يكن معه أحد يفيد التحقيق. فقيّد القتل ضد مجهول.

سكتت برهة، وقالت:

- أخبرتني إشراق أيضا ذات يوم عن الحادث أنه أصدر أمرًا بتصفية القاتل المحترف لإخفاء دليل الجريمة..

- هل تعرف فريدة؟

- تميل فريدة إلى تصديق هذه الرواية خاصة بعد طرد إشراق من الشركة.

فقلت وأنا في غاية الغضب:

- نحن أمام رجل وراء كل الحوادث المثيرة.

- لذلك جئتُ إليكَ لأحذرك.. ورأيي أن تغادر عائدًا إلى كندا..

رددت باستنكار:

- ماذا تقولين؟

فبادرتْ قائلة:

- ولو لبعض الوقت.

فانفجرت بداخلي باركين غضب ظننتها خامدة.. كورت أصابع يمناي في قبضة رفعتها إلى أعلى، وقلت غير مبال بتحذيراتها:

- بل سأبقى وأواجه.
- أعوانه كثيرون .. لا يمكنك أن تراهم.
- لا بد من المواجهة.
- ليس معك أحد.
- معي الله. ألا يكفي أن يكون الله معي؟!
- لكني لا أضمن أن تسلم من الخطر.
- لا تخافي.

قطع حديثنا صوت جرس التليفون.. تلقيت مكالمة من فريدة بدهشة، لم أتوقع أن تتصل بي.. قلت لها إن بهيرة هنا. فقالت:

- أعرف. لا بد أنها حذرتك أيضًا.

- نعم.

- أرى أن تفكر في الرحيل في هذه الأيام. فلا أضمن لك السلامة.

- سأتصرف بما يمليه عليّ عقلي.

- لك كل التمنيات الطيبة. ونفذ رغبتي الآن. وسأحدثك مرة أخرى.

وضعتْ السماعة.فوضعت السماعة أنا الآخر. ورأيتني أفكر في طلبها.. وأنا شارد. فشعرت بغليان في نفسي وبقدرة عارمة لم أشعر بمثلها من قبل. وتمثلت فريدة وهي تنتقل من زوج، إلى آخر، إلى ثالث؛ فقلت في نفسي: إنني المسئول عن

كل ما جرى لك وما لحق بك من متاعب وآلام.. وقلت: إنني لن أتخلى عنك مرة أخرى، فلن أغادر، سأدخل بإرادتي "عش الدبابير"، ولْيكن ما يكون..

رويت لبهيرة ما أشارت عليَّ به فريدة. ونقلت لها إحساسها التصميمي على الرحيل. وأبديت لها قراري بالبقاء. فقالت بهيرة:

- أنا أؤيد رغبة فريدة. فالسفر الآن مطلوب حتى تهدأ المشاعر. لاحظ أن راغب الدهشوري عنيد، ولا يسلم بسهولة.

فبادرت بقوة:

- لا يمكن الابتعاد عن هذا الواقع.

فقالت بهيرة بصوت يشوبه اليأس:

- لبعض الوقت يا مختار.. وجدت في صندوق البريد رسالة تهديد من مجهول صباح اليوم.

فقلت وأنا مملوء بالغيظ:

- كيف أرحل، وراغب وأعوانه يمارسون الفساد والعبث والقتل والتهديد؟!

في التاسعة والنصف غادرت بهيرة إلى سيارتها لتستقلها إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. فموعد محاضرتها الساعة الحادية عشرة.. بعد أن ودعتها على الباب الرئيسي، وصعدت إلى مكتبي-وجدتني وحدي أراجع الأفكار والكلام والأصوات. وقلت في نفسي وأنا أشعر بالأسى نحو بهيرة؛ رشدي العامري زوجها الذي حصل على الدكتوراه من فرنسا في الهندسة. راح ضحية الغدر والتدبير الأسود؛ لأن خصومه وجدوا فيه منافسًا خطيرًا بشركته الهندسية الوليدة. ترك زوجته وثلاثة أبناء:الآن الأكبر يعمل في الخارجية،والأوسط طبيب، والأصغر طالب في السنة الثالثة بكلية العلوم. تولت بهيرة المسيرة وحدها بعد اغتيال رشدي. كان الأبناء صغارًا. أولهم في

العاشرة، وثانيهم في الثامنة، وثالثهم في السادسة.. لم تنس بهيرة اغتيال زوجها لحظة. لكنها آثرت الصمت المؤقت..

كيف يمكن السكوت الآن؟. لا بد من وضع حد لهذا العبث بأرواح البشر. وهاهي بهيرة اليوم مهددة هي وأبناؤها؛ لأنها تساندني وتصارح الآخرين بأن ملف اغتيال رشدي لا بد أن يفتح.. فالقِصَاص واجب من القاتل، ولا يمكن أن يرضى عاقل بأن يرى القاتل أو المدبّر حرًا طليقًا طول الوقت، كما لا يمكن القبول إلى الأبد بتعليق "ضد مجهول" على كل جريمة تقع بينما القاتل معلوم..

وهاهي فريدة بعد حادث الأمس معرضة لمزيد من الإيذاء. ربما يفكر راغب الدهشوري في عمل أشد إضرارًا وأكثر إيلامًا. وهاأنت الآن في بؤرة اهتمامه بعد أن اطلع – دون شك– على تسجيل لقائك أمس بفريدة بالصوت والصورة. والواقع أنني لا أدري من أين ستأتي الطعنة. وهل سأسلم من حادث مروريّ مدبّر، أو طعام أو شراب مسموم؟!

فجأة شعرت بشيء من الوهن ينال من نفسي وجسمي، فقد رأيتني وحدي مجردًا من الأعوان إلا من بهيرة وفريدة ونسمة الهواري وزوجها نظمي الفاتح. توالدت في نفسي هواجس جديدة، فارتبت بمن حولي.. أول من ارتبت فيه "شاكر" الطباخ، فلم يسلم من نظرات الشك والريبة مع إعداده لكل وجبة طعام أو تقديمه لأي شراب لي. وكذلك شاهين السائق؛ فمن يدري ربما يقفز من السيارة وهي مسرعة لألقي حتفي وحيدًا في الطريق.. وامتدت ريبتي إلى كل من قابلتهم في "ندوة نادي الياسمين" التي أعدتها رئيسته أول أمس..

حين تمثلت لي الدكتورة نسمة في وحدتي وهي تقدمني لجمهور الحاضرين، ثم وهي تقدمني إلى زوجها الدكتور (نظمي الفاتح) أستاذ القانون الدولي- شعرت بحاجة ماسّة إلى التحدث إليهما واستشارتهما لوقف هذا التوالد السريع لهواجس أخشى أن تفجر رأسي.انتظرت حتى عادت بهيرة من الجامعة

ـ واتصلت بهما لتحديد موعد معهما..فأجابتني بأنهما بانتظارنا في السابعة مساء اليوم على شاي بمنزلهما بجاردن سيتي..

(١٥)

ذهبتُ وبهيرة إلى شارع الحديقة بجاردن سيتي. استقبلنا الدكتور نظمي والدكتورة نسمة وابناهما بترحاب بالغ؛ نادر مدرس مساعد بطب القاهرة، وحمدي ضابط شرطة برتبة نقيب.. استأذن الاثنان بأدب شديد بعد فترة قصيرة من حضورنا؛ ليضمنا نحن الأربعة الصالون الكلاسيكي الوثير..

فوجئت بأنهما على معرفة بما جرى لفريدة، وبأحوالها مع راغب الدهشوري.. وقال الدكتور نظمي:

- يجب أن يحاسب راغب الدهشوري، ويخضع للتحقيق. القانون في النهاية أكبر من أي شخص مهما علا شأنه، وارتفع مركزه، وتضاعفت ثرواته.

أثلج صدري هذا الرأي الذي أيدته نسمة وبهيرة، فقويت عزيمتي وتضاءل هذا الإحساس بالوهن الذي انتابني في منزلي برويال سيتي، وتفاعلت بمشاعر الثلاثة، ولكن الدكتور نظمي ما لبث أن شارك بهيرة وفريدة رأيهما بضرورة الاحتجاب المؤقت بالسفر حتى تهدأ العاصفة..

- الإدانات الآن متبادلة. والعواصف متأججة. ويمكن أن ترتكب حماقات، بل جرائم في مثل هذه الظروف.. أرى أن تغادر لفترة أرجو أن تكون قصيرة.

- سفري الآن هروب لا يليق.

فقال الدكتور نظمي:

- قلت رأيي.. والقرار يعود إليك.

- أشكرك .. وقراري هو البقاء من أجل إقرار فكر جديد يجعل مصلحة الوطن في المقدمة، وفوق أي اعتبار..

واقترحت تكوين شركة عمادها "النزاهة التامة" تجمع عددًا من خبراء الاقتصاد، وبعض رجال الأعمال المشهود لهم بحب الوطن. نستصلح الأراضي، ونتوسع في الزراعة؛ بغرض الاستهلاك والتصدير، ونقيم مصانع جديدة أساسها ما تحتوي عليه الأرض من معادن متنوعة، ونزيد من عمليات البحث عن البترول والغاز السائل، وننقب عن كافة الخيرات في بيئتنا التي تشير إليها أحدث الدراسات العلمية كما حددتها "الأقمار الصناعية" الكاشفة..

ونسى الجميع موضوع رحيلي، حيث عمدوا إلى تأييد مشروعي، وتعهد الثلاثة بمفاتحة عدد من الخبراء ورجال الأعمال الشرفاء.. وقد انفض اجتماعنا الذي استغرق حوالي ساعتين، حيث عدتُ وبهيرة إلى "رويال سيتي" وأنا ممتلئ بأحاسيس التفاؤل والرضا..

(١٦)

في العاشرة من صباح اليوم التالي اتصل بي مدير أمن الجيزة. وطلب مني أن أوافيه في الثانية عشرة ظهرًا بمكتبه بالمديرية؛ للتعرف على أربعة شبان جرى ضبطهم وهم في حـــالة سكر بيّـــن في الطريق الصـــحراوي مع فتاة مخطوفة، تنطبق عليهم الأوصاف التي أدليت بها في محضر التحقيق.. وقد دلت التحقيقات المبدئية على أنهم ربما يكونون الشبان الذين اختطفوا الزوجة الشابة أول أمس من ميدان سفنكس، والمطلوب مني استعراضهم للتعرف عليهم..

سارعت إلى مديرية الأمن. استقبلني المدير بحفاوة وعلى شفتيه بسمة ارتياح.. وبعد دقائق كنت أشهد عملية عرض المتهمين الأربعة.ومن النظرة الأولى أكدتُ للمدير أنهم الشبان الذين قاموا بعملية الاعتداء على الزوج وخطف زوجته الشابة عنوة..

- نعم هم الجناة. هم مَن شاهدتهم يخطفون المرأة من يد زوجها.

لم يعترض أي واحد من الشبان الأربعة على شهادتي؛ حيث أطرقوا جميعًا. فتساءلت موجهًا سؤالي للمدير:

- أين المرأة؟ هل تم العثور عليها؟

فقال بثقة:

- سيوصلنا الاستجواب إليها.

أمر المدير باقتياد الشبان الأربعة. ثم التفت إليّ قائلاً:

- اطمئن سنصل إلى المجني عليها بسرعة. وسنخبرك.

- أرجو أن تكون سالمة.

- نحن جميعًا نتمنى ذلك.

عرفت من المدير قبل مغادرتي أنني شاهد أساسي على الواقعة؛ لأن بعض من شاهدوا الواقعة لم يتقدم للشهادة إيثارًا

للسلامة، بينما أنكر البعض الآخر أنهم رأوا أي اعتداء أو خطف؛ خوفًا من انتقام مؤكد لصلة الشبان بمسئولين كبار في الحزب حسب تحريات الشرطة.. لذلك صرتُ الشاهد الأساسي الذي سيتعين عليه أن يحضر أمام النيابة ليدلي بأقواله.. وفي غرفة التحقيق رأيت زوج المرأة المخطوفة وهو يقف حائرًا أمام الشبان الأربعة؛ فأصابني القلق..

لم أتضايق أو أشعر أن الوقت يمضي هدرًا، وأنا أدلي بشهادتي أمام النيابة، بل شعرت براحة عميقة؛ لأنني أدركت أن شهادتي سوف تقود الشرطة إلى المرأة المخطوفة.. رأيتني سعيدًا؛ لأنني قد أديت واجبي على الوجه الأكمل، وإن شعرت بقلق لأننا لم نعلم حتى الآن مصير المرأة المخطوفة..

انصرفت من المديرية وأنا أشعر ببعض الرضا، تاركًا النيابة توالي الضغط على الشبان الأربعة بمزيد من الأسئلة. ولكن حين استقللت سيارتي تضاعف شعوري بالقلق، وتلاشى

من نفسي هذا الشعور القليل بالرضا؛ ربما تكون المرأة مريضة، وربما قتلوها لإخفاء معالم جريمتهم، ولا شك أنهم تناوبوا الاعتداء عليها. شعرت بالرثاء نحو زوجها الذي صرّح في التحقيق بأن زوجته حامل في الشهر الثالث، بل شعرت بغضب هائل أوصلني إلى تمني إعدام الشبان الأربعة، حتى ولو تم العثور على المرأة حيّة – ليكون "الإعدام" هو المصير المنتظر لكل من يرتكب مثل هذه الجريمة..

ويبدو أن هذه الجريمة لن تكون محصورة في غرفة التحقيق، فقد فوجئت بصوت زاهد العابد عبر التليفون عقب عودتي إلى مسكني، يقول بصوت متوتر:

– دكتور مختار.. ابني شادي أحد الشبان الأربعة الذين تعرفت عليهم.. طيش شباب يا دكتور مختار..

سكتَ مليّا، ثم قال بثقة:

- أتوقع أن تغيّر شهادتك أمام النيابة.. راغب بك علم بالأمر.. وعليك أن تقرّر.. ونحن على استعداد لتلقي شروطك، وعلى فكرة ناجي العامري ابن الدكتورة بهيرة زميل دراسة لابني شادي المائل الآن أمام النيابة، وشقيقاه أكرم وشريف يمكن الوصول إليهما بسهولة.. فهل أطمع في تعديل شهادتك؟

توقف عن الكلام للحظة، ثم واصل:

- من الخير أن تعدل عن شهادتك. وللعلم زوج المجني عليها تم الاتصال به منذ قليل. وسوف يتراجع عن شهادته. دكتور مختار.. لنا وسائلنا في تنفيذ ما نريد.

رددتُ عليه بثلاث جمل ذات نفي قاطع:

- لن أعدّل.. لن أقبل.. لن أتراجع.
- إذن لن ترى خيرًا.

وضع السماعة بعنف.

رغم أنني اتصلت بمدير الأمن، وأبلغته بنص الحوار فطمأنني، فإن شعوري المتضاعف بالقلق أخذ يتنامى بسرعة؛ فها هو زاهد العابد يبعث في مكالمته برسالة تهديد بالغة الخطـــورة. حيـــاة أكرم وناجي وشـــريف أبناء شقيقتي رهن بالرجوع عن شهادتي.. هل تتكرر المأساة في حياة بهيرة؟ يمارس زاهد وراغب وأعوانهما أسلوب "المافيا" القاتل. فأين الأمان إذن وسط هذا التهديد المروّع للنفوس؟!

اضطرب قلبي بعنف، فاهتزت الأرض تحت قدمي.. وحدثت نفسي بأن الشرطة وحدها غير كافية لتطبيق القانون، ولن تستقيم العدالة بالخوف والهروب، ودفن الرءوس في الرمال. ومن الضروري أن تواجَه "المافيا"، وتحاصر بقوة القانون وإرادة الضحايا..

امتدتْ يدي إلى التليفون، واتصلت بزاهد العابد، وقلت بلغة مهددة:

- لن أتراجـــع عن شهادتي. وســـوف أنال منكم جميـــعًا بالوثائق التي تحت يدي.

فأجاب يكرر ما قاله من قبل:

- إذن لن ترى خيرًا..

(١٧)

أرسل مدير الأمن سيارتَيْ حراسة، وقفت إحداهما أمام منزلي، واستقرت الأخرى في مواجهة منزل بهيرة..وأمضيت جزءًا من الليل مع بهيرة وأكرم وناجي وشريف. واضطررت إلى إخبارهم بما سمعت. وأوصيت بالحذر الشديد؛ حتى تتكشف هذه الغمة. ثم عدت إلى منزلي لأقضي فيه بقية الليل..

في العاشرة صباحًا دعاني مدير الأمن إلى الحضور لعمل محضر ضد "زاهد العابد"، فأسرعت إلى سيارتي دون إخبار شاهين السائق الذي يعاني من أنفلونزا ثقيلة. أسهدته كما

عرفت من شاكر الطباخ. وفي منتصف الطريق حازتني سيارة (جيب شيروكي) سوداء، بينما سارت خلف سيارتي سيارة جيب أخرى مماثلة. ضغطت السيارة الأولى، فاصطدمت بالرصيف وعبـــرته، واندفعت نحـــو الرمـــال لمسافة طويلة. أصبت بهزة أدارت رأسي قليلاً. فأوقفت محرك السيارة. نزل من الجيـــب الأولى رجـــلان، ومن الثانية رجـــلان.. اندفع نحـــوي الرجـــال الأربعة، وجعلوا يضربون بعصيّ غليظة- الرأس والصدر والساقين والذراعين.. انبعث دم دافئ غطى عيني ووجهي.. ثم فجأة توقف الجميع عن الضرب لاقتراب سيارتين ترجل منهما خمسة شبان، رأيتهم يقبلون، فأسرع المعتدون إلى سيارتيهما اللتين أسرعتا هربًا بسرعة الصاروخ. سمعت وكأنني في حلم أصوات الشبان:

- الرجل موشك على الموت.
- الجناة يركبون سيارتين بلا أرقام.
- المهم الآن أن ننقله إلى أقرب مستشفى.

في وقت قصير كنت ممددًا فوق المقعد الخلفي في إحدى السيارتين وأنا بين الحياة والموت. وسمعت الشاب الذي توسدت ساقه يقول لقائد السيارة:

– أقرب مستشفى هي مستشفى الهرم.

وأسرعت السيارة بي تتبعتها السيارة الأخرى، وسمعت الشاب الذي أتوسد ساقه يتصل بالدليل من تليفونه المحمول، لمعرفة رقم المستشفى، ثم اتصل بها موضحًا لمحدثه أنهم يحملون معهم في السيارة رجلاً مصابًا، وفي حالة حرجة، وأضاف:

– شاهدنا حادث الاعتداء عليه في الطريق، أرجو الاستعـــداد لاستقبـــاله. ولن نتـــركه؛ فنحن شهود على الحادث.

تطلعتُ إلى وجه الشاب الذي أتوسد ساقه وهو يتحدث بانزعاج، فتذكرت وجه فريدة، بل إنني رأيت أنه ليس إلا

فريدة.. فداخلني شعور بالأمـــان. قلت: إني لســت وحــدي. وهاهي أيــدٍ تنقلني إلى "الترولـلي" بعناية شديدة من مدخل المستشفى، وتمضي بي إلى غرفة العمليات. وعلى طاولة العمليات تلاشى وعيي تمامًا. فلم أعد أشعر بشيء..

أفقت من المخدر، فرأيت يدي اليمنى مجبّسة، وساقي اليسرى مجبّسة، وتحسست رأسي فوجدتها محاطة بالأربطة.. وتابعت بعيني شقيقتي بهيرة وأبناءها الثلاثة، والدكتورة نسمة وزوجـــها. ورأيــت الشبـــان الخمسة الذين أحضـــروني إلى المستشفى. وتطلعت إلى الشاب الذي توسدت ساقه، فوجدت وجهه باسمًا وصافيًا كوجه فريدة. ورمقت قائد السيارة الذي قادها بمهارة فائقة إلى المستشفى. حاولت الكلام فلم أستطع.. غمرتني موجة إغماء أو نوم لا أدري..

فتحت عيني بعد فترة لم أتمكن من تحديدها.. رأيت ضابطًا تعلوه ابتسامة. جاء ليأخذ أقوالي.. وكان الشبان الخمسة ما زالوا يحيطون بسريري، رفضوا الذهاب حتى تتم

جميع إجراءات التحقيق، وحتى يطمئنوا على "رجلهم" الذي حملوه وهو بين الحياة والموت. قال أحدهم:

- لن يهدأ لي بال حتى يتم القبض على الجناة.

وقال آخر:

- أوصاف السيارتين في أذهاننا.

وقال ثالث:

- أستطيع أن أتعرف عليهم بسهولة.

وقال الذي توسدت ساقه:

- الحمد لله أنك نجوت.

وقال قائد السيارة:

- كنت أشعر أنني أطير في الهواء وأنا متجه إلى المستشفى.

وقالت بهيرة في أذني:

- فريدة في غاية الغضب.. ولكنها لن تستطيع أن تحضر الآن.

وجاء الطبيب المتابع ودعاهم برفق إلى الانصراف، فامتثلوا لدعوته:

- علينا أن نتركه الآن للراحة.

أمضيت في المستشفى ثلاثة أشهر أعالج من "ارتجاج" ناشئ عن ضربة عنيفة فوق الرأس، ومن الكسرين البالغين للذراع الأيمن والساق اليسرى.. واكتشفت أن ثمة شرطيين يقفان أمام الباب. وعرفت أن الحادث في طريقه إلى أن يقيد "ضد مجهول". فأصابني وهن بالغ. وعلمت من بهيرة أن الشرطة استدعت "زاهد العابد"، وأخذت أقواله في التحقيق بناء على توصية من مدير أمن الجيزة الذي سبق أن أخبرته بتهديد زاهد العابد لي في التليفون قبل الحادث. وعرفت أنه تم إخلاء سبيله؛ لعدم وجود دليل مادي ضده.. ونالني يأس وأنا أستمع إلى أنه حرّ طليق. ومن العجيب أنني تلقيت باقة ورد من راغب الدهشوري، وأخرى من زاهد العابد للتهنئة بالنجاة والتمني بالشفاء العاجل..

(١٨)

صرّح أطباء المستشفى بخروجي بعد إزالة أربطة الرأس. فقد تم شفاؤها من الجرح الغائر. وإن ظلت يدي اليمنى، وساقي اليسرى في الجبس؛ نظرًا لوجود كسر مضاعف..

وعند خروجي وجدت الشبان الخمسة يقفون أمام باب الخروج، وتقدم مني الشاب الذي توسدت ساقه، وقال:

- سنرافقك إلى المنزل. لقد عرفنا سبب الاعتداء. وتأكد أنك لن تكون وحدك. سنظل إلى جوارك حتى تشفى تمامًا.

تحرك موكب يضم سيارات الدكتور نظمي والشبان الخمسة يقطع الطريق إلى مسكني برويال سيتي. بينما ربتت ظهري بحنان شقيقتي بهيرة التي قالت وهي تنظر إلى سيارتَي الشبان الخمسة:

- طول مدة إقامتك بالمستشفى كان دائمًا اثنان منهم يقفان أمام الباب بالتناوب.

- غريبة.. أين يقطنون؟

- بحدائق الأهرام. وضعتهم الصدفة وحدها في طريقك. قالوا إنهم عرفوا شخصيتك بعد وصولك إلى المستشفى. حضروا ندوتك في نادي الياسمين بالصدفة. لم يكونوا مدعوين. عندما جمعتهم طاولة قريبة من قاعة الندوات، سمعوا عن موضوع المحاضرة؛ فدفعهم الفضول إلى الاستماع إليك، فحضـــروا، وآمنـــوا بما عرضت من أفكار ومشروعات.

- أين يعملون؟

- إنهم مهندسون حديثو التخرج، ويعملون في مواقع مختلفة كما قالوا.

- أحب أن أتعرف إليهم.
- إنهم يؤمنون بك.
- هل يحق لأحد أن يدعوني إلى المغادرة والهروب بعد الآن؟!..

بعد ساعة من وصولي إلى المنزل تلقيت مكالمة من راغب الدهشوري؛ عبر فيها عن تهنئتي بسلامة العودة، بعد أن أرسل باقة ورد بيضاء، وقال:

- معي الآن زاهد العابد يهنئك أيضا. ونحن نرغب في زيارتك. أليس لديك مانع من الزيارة؟

فبادرت إلى القول:

- أهلاً بكما. لكن سأتصل بك بعد قليل للتأكيد.
- عين العقل، ونحن في الانتظار.
- بالمناسبة ماذا تم بشأن ابنه؟

- ما زال محتجزًا مع أصدقائه.
- راغب بك. سوف اتصل بك بعد قليل.

وضعت السماعة واتصلت بمدير أمن الجيزة الذي أكّد لي عملية "الاحتجاز"، وأخبرني أنهم مصممون على الإنكار. ولا أثر حتى الآن للمرأة المخطوفة..

فتساءلت:

- هل سيفلت الجناة من العقاب؟!
- لا أظن. ولكن المسألة محتاجة لوقت.

وجاءتني مكالمة من فريدة ترجوني بالرحيل واستكمال العلاج في الخارج. وأضافت:

- أنت الآن معرض لخطر أكيد. ورحيلك راحة للجميع.

تأملت ذراعي وساقي المجبستين، وقلت بلامبالاة:

- ازداد تصميمي بعد الحادث على البقاء.

- أعوانه كثيرون. وهو الآن مع زاهد العابد، وأعتقد أنهم يدبرون شيئًا آخر لك.

تذكرت الشبان الخمسة الذين أنقذوني من أيدي المعتدين. وتذكرت أكثر الشاب الذي توسدت ساقه، فقلت:

- لا تخافي؛ ازداد عدد الأعوان، وهم الآن يقومون بحمايتي.

- يعزّ عليّ أن أطلب منك المغادرة، ولكني كلما رأيت أعوان راغب ازددت خوفًا عليك. إنهم الآن مجتمعون في الصالون يدبرون لشيء كبير..

نهضت من فراشي.. واتجهت إلى الشرفة. كانت الشمس قد غابت من الأفق. تنقل بصري بين شرفات القصر ونوافذه والطريق الصاعد إليه.وقلت في نفسي إنهما بالصالون ينتظران مكالمتي لأدعوهما لزيارتي. وقلت لنفسي: إن الجناة مصممون على إنكار واقعة اختطاف الزوجة الشابة، وتم استبعاد الزوج من التحقيق؛ لأنه غير أقواله.. ولم يعد أمامهم

سواك .. أنت الآن الشاهد الوحيد. وسوف تظل بهيرة وأبناؤها في خــطر بعــد إدانـــة الشبان الأربعة الخاطفــين. أعوانهم مزروعون في كل مدينة وحي وشارع. ولن تخلو أية مؤسسة حكومية أو غير حكومية من واحد منهم. وإذا تمت تصفيتك فإن الإفراج أكيد لافتقاد دليل الإدانة. يستطيع أي محام مبتدئ تبرئة هؤلاء الشبان. فما بالك بكبار المحامين الذين يحيطون براغب الدهشوري وأعوانه..

عدت مرة أخرى إلى النظر في الجبس المحيط بذراعي وساقي وتحسست رأسي، وتذكرت وأنا ممتلئ بالغيظ واقعة الاعتداء الوحشي في الصحراء. وقلت: لولا تدخُل الشبان الخمسة لفارقت الحياة. العناية الإلهية أرسلتهم في الوقت المناسب لإنقاذي وإتمام مهمتي.. ومهمتي الآن هي إنزال القِصَاص بعيدًا عن مكاتب التحقيق الرسمية.. وفجأة أصابني وهن وخدر؛ فأغمضت عينيَّ..

رأيتني أهبط من الطابق الثاني، قابضًا على مفتاح السيارة. وأمشي بدون عكازي المعدني. رأيت ذراعي الأيمن وساقي اليسرى بلا جبس. دخلت الجراج، وشغلت المحرك. خرجت وأنا أرمق سيارة الشرطة المرابطة أمام مسكني، وسيارة الشابين اللذين جاءا لحراستي.. تجاوزتهما دون أن يستوقفني أو يسألني أحد. رأيتني أندفع بالسيارة في الهواء الممتد من مسكني إلى القصر، قاصدًا الطريق الصاعد إليه. لم يستوقفني الحرّاس، ولا أشهروا البنادق، ولم تنبح الكلاب الشرسة. أفسح الحراس الطريق..

بـــدلاً من التوقف أمـــام بـــاب القصر، حتى أترجل من السيـــارة وأمشي نحوه - زدت فجـــأة من ســـرعتها؛ بقصد اقتحام الباب الدائـــري الكبيـــر وتحطيمه.. ورأيتني أندفع نحـــو طاولة الاجتماع، الذي يرأسه راغب الدهشوري وعلى يمينه زاهد العابـــد، في حين جلس على جانبي الطاولة

الأعوان والمساعدون.. ورأيتني غير مبال بطلقات الرصاص التي انهالت فجأة على جوانب سيارتي التي واصلت اندفاعها، فاجتاحت الطاولة البيضاوية وهي تمضي إلى نهاية القاعة.. بينما شملتني غيبوبة شعرتُ خلالها بيد فريدة البدري الحانية تمسح على جبهتي، وتحتويني بنظرات تشبه نظرات الشاب الذي توسدتُ ساقه وأنا بين الحياة والموت.

الهرم في ١٧ نوفمبر ٢٠٠٥



كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- سلوى الروح: (رواية) ط(٢)، دار الإبداع، ٢٠٠٦.
- الجرح: مجموعة قصصية، ط (١) ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- الكلام: مجموعة قصصية، ط(١)١٩٨١ ط(٢)، الآداب-القاهرة، ١٩٩١.
- أمواج الفردوس: قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- يوم: قصص، ط(١) أجيال٢٠٠٨.
- فوق الأحزان: رواية، هيئة قصور الثقافة، (تحت الطبع).

ب- الكتب:

- فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ: ط(١) مكتبة أم القرى١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم: ط(١)، الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي: ط (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩١.
- الخطاب النفسي في النقد العربي القديم: ط(١) الأنجلو المصرية١٩٩٣، ط(٢) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٦.
- فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٥.

- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** ط(١) ١٩٩٥، ط (٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.
- **الصنعة الفنية في التراث النقدي:**ط(١) مركز الحضارة العربية -القاهرة ١٩٩٩.
- **طاقات الشعر في التراث النقدي:**ط(١)الأنجلو ٢٠٠٠، ط(٢) مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.
- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **تحليل النص الأدبي:** دراسات في الأجناس الأدبية (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) ط(١) الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠٠١.
- **تجليات الإبداع الأدبي:** ط (١) الآداب- القاهرة ٢٠٠٢، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق:**ط(١) الآداب-القاهرة ٢٠٠٣.
- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق:** ط(١) الآداب- ٢٠٠٣.
- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ:** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦،ط(١) الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠٠٤.
- **مرايا التجلي:** رؤى نقدية كاشفة: ط(١)، الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **فيض القلم:** مقالات في الثقافة والأدب: ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **نجيب محفوظ حالمًا بالقمر:** ط(١) الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.